كتاب عليا



قصة مستوحاة من أحداث حقيقية

حسام نجيب

تكتاب عليا

قصة مستوحاة من أحداث حقيقية

حسام نجيب

© 2026 حسام نجيب. جميع الحقوق محفوظة.

قصة مستوحاة من أحداث حقيقية. أُعيد بناء بعض الحوارات والمواقف أدبيًا، مع الحفاظ على الوقائع الأساسية التي يستند إليها العمل.

إهداء

إلى تلك الطفلة التي حملت في قلبها أسئلة أكبر من عمرها، وصنعت من الألم امرأة قادرة على الاستمرار.

الفهرس

افتتاحية | رسائل لم تُفتح 6

الفصل 1 | القادمة من فاس 9

الفصل 2 | امرأة غيّرت المصير 15

الفصل 3 | على عتبة الغربة 18

الفصل 4 | حين سقط البيت 23

الفصل 5 | شهران فقط 28

الفصل 6 | حيدي حوايج المدرسة 33

الفصل 7 | الحزن كيبقى برا الباب 37

الفصل 8 | فين البنت اللي كانت معاك؟ 43

الفصل 9 | الابن في بلاد الأب 46

الفصل 10 | أربعة أيام 50

الفصل 11 | خاصك تطلبني من بابا 54

الفصل 12 | بين الحب والعتاب 57

الفصل 13 | حظر التجوال 61

الفصل 14 | اقفلي المحل 65

الفصل 15 | من المغرب إلى القاهرة 68

الفصل 16 | ما زال النور مضاءً 71

الفصل 17 | التهديد 75

الفصل 18 | رجّعيني 79

الفصل 19 | وأخيرًا عاد 84

الفصل 20 | أثمن من الألماس 88

افتتاحية: رسائل لم تُفتح

في الرابعة عشرة تقريبًا، عرفت لبنى أن رجلًا عاد من ليبيريا إلى الدار البيضاء، وأنه يعرف أباها. لم تكن تعرف الرجل، ولم يكن يهمها من أمره إلا ذلك الخيط الرفيع الذي يصله بأبيها. كان اسم البلد وحده كافيًا ليوقظ في قلبها رجاءً قديمًا: ليبيريا. هناك، وراء البحر، يعيش عادل. هناك تمر أيامه، بينما تمر أيامها هي في بيت ضاقت به الأحوال، وبين أسئلة لم تجد لها جوابًا.

لم يكن غياب أبيها خبرًا جديدًا. الجديد أن شخصًا عاد من البلد الذي غاب إليه، وأن في وسعها أن تسأله وجهًا لوجه. ربما يقول إن أباها بخير. ربما يحمل منه سلامًا، أو يعرف متى يعود. وربما يعرف لماذا طال غيابه حتى صار أهل البيت يتجنبون الحديث عنه، كأن ترديد اسمه يذكّرهم، في كل مرة، بالمسافة التي تفصلهم عنه.

في الطريق، راحت ترتب أسئلتها. قيل لها إن الرجل يغلب عليه الحديث بالفرنسية، فاستعادت ما تعرفه من كلمات، وكررت في سرها اسم أبيها أكثر من مرة. لم تذهب لتطلب مالًا، ولم تحمل إليه رسالة. كانت تريد خبرًا تطمئن به، أو سببًا واحدًا تفهم به هذا الغياب الطويل.

دخلت المحل فوجدت الرجل جالسًا إلى مكتبه، وعلى أنفه نظارة صغيرة. رفع عينيه من فوق الأوراق، ثم أنزل نظارته قليلًا ونظر إليها قائلًا بالفرنسية: «وي؟» ترددت لحظة قبل أن تذكر اسم أبيها: عادل، الذي يعيش في ليبيريا. تغير وجه الرجل. صمت، ووضع خاتمًا كان بين يديه في علبته وأغلقها، ثم سألها بالدارجة المغربية:

— نتي بنت عادل؟

أومأت برأسها. انتظرت أن يسأل عن أمها أو إخوتها، أو أن يبتسم ابتسامة تعرف منها أن أخبارهم تصل إلى أبيها. لكنه أطال النظر إليها نظرة لم تفهمها. ثم جاءت كلماته على غير ما انتظرت؛ لم تفاجئها فحسب، بل صدمتها:

— انساي باك، راه نساكم.

كيف لطفلة أن تنسى أباها؟ كيف تنسى الرجل الذي كانت تدخل صالونه كأميرة صغيرة، فيترك ما يشغله ليرحب بها؟ كيف تنسى من كانت تشعر، ما دامت قريبة منه، بأن العالم لن يستطيع أن يؤذيها؟ لم تكن العبارة تشبه شيئًا تعرفه عنه. ولهذا بقيت واقفة، عاجزة حتى عن الاعتراض.

بدأ الرجل يشرح لها ما رآه في ليبيريا. تحدث عن أظرف وصلت إلى عادل من أسرته في المغرب، وبقيت مغلقة، لم يفتحها. لم يدّعِ أنه يعرف ما كان يدور في نفس أبيها؛ قال ما شاهده. لكن الصورة التي تركها في ذهنها لم تفارقها حتى بعد سنوات طويلة: رسائل قطعت البحر، ووصلت إلى صاحبها، ثم ظلت تنتظر يدًا تفتحها. ماذا كان مكتوبًا فيها؟ وهل كان بينها ما يخبره بضيق أحوالهم أو بشوق أطفاله إليه؟ لم تكن تعرف. وكل ما عرفته يومها أن الرسائل وصلت، وأنه لم يقرأها.

أرادت أن تسأله لماذا لم يفتح أبوها تلك الأظرف، لكنها لم تجد صوتها. انتبه الرجل إلى صمتها، وسألها إن كانت تعمل. هزت رأسها نافية. كان يملك محلًا للذهب والمجوهرات؛ أشار إلى ما حوله، ثم طلب منها أن تمر عليه في اليوم التالي. لم تسأله عن طبيعة العمل. كان ذهنها لا يزال عند الرسائل، وعند الجملة التي قالها قبل قليل.

خرجت من المحل. كان الناس يتحركون من حولها على عادتهم؛ أصحاب المتاجر ينادون على بضائعهم، والمارة يعبرون الطريق، والحياة تمضي كأن شيئًا لم يحدث. أما هي، فقد بدا لها أن العالم توقف عند تلك الكلمات. مشت نحو البيت تسمع صوته يتردد في رأسها: «انساي باك، راه نساكم».

حين وصلت، أخبرت أمها أن صاحب محل للمجوهرات طلب منها الحضور في الغد. حدثتها عن فرصة العمل، لكنها لم تستطع أن تنقل إليها ما قاله الرجل عن عادل. لم تكن قد استوعبت ما سمعته، فكيف تضع ذلك الألم في قلب أمها أيضًا؟

طال عليها المساء. جلست مع أسرتها، وسمعت أحاديثهم، وأجابت حين سألها أحدهم عن يومها. لكن كلما ساد الصمت، عادت إليها صورة الخاتم وهو يُغلق في علبته، ثم صورة الرسائل التي لم

تُفتح. كان أبوها في ذاكرتها ما يزال الرجل الذي أحبها ودللها؛ ولم تستطع أن تجمع بين تلك الصورة وما عرفته عنه في ذلك اليوم.

في الصباح، عادت إلى محل المجوهرات. لم تكن تعرف ما الذي سيطلبه منها الرجل، ولا أن الباب الذي دخلته بحثًا عن خبر أبيها سيقودها إلى حياة أكبر من سنها بكثير.

الفصل الأول: القادمة من فاس

جاءت أم كلثوم من فاس إلى الدار البيضاء في زيارة لأقاربها. لم تكن تحمل مشروع زواج، ولا تتوقع أن تقودها تلك الزيارة إلى بيت ستعرف فيه الفرح والخوف معًا. كانت ضيفة في منزل يسكن عادل إحدى شققه، شابًا يعمل بالحلاقة، ويعرفه أهل الحي بحسن مظهره واهتمامه بمهنته.

رآها عادل، ولم تكن بينهما معرفة سابقة ولا قصة حب طويلة. لكنه عاد إلى أمه، وأخبرها بأنه يريد الزواج من تلك الفتاة. قال بلهجة حاسمة:

— هي هادي اللي بغيت.

هكذا بدأت حياة ظن أصحابها، كما يظن كثيرون في البدايات، أن ما ينتظرهم يمكن ترتيبه بالعمل والصبر وحسن النية. بيت، وأطفال، ورزق يتسع شيئًا فشيئًا. لم يكن في المشهد الأول ما ينبئ بأن طفلًا من ذلك البيت سيكبر ذات يوم وهو يتعلم كيف يعيش من دون أبيه.

كان عادل ماهرًا في الحلاقة. يعرف كيف يستقبل الزبون، وكيف يجعله يعود. لم يكن يرى الصالون مجرد مقعد ومرآة ومقص؛ كان مكانًا تصنع فيه الثقة قبل أن تُقص فيه خصلات الشعر. ومع مرور الوقت، اتسع عمله حتى صار يملك صالونًا للرجال وآخر للنساء. وبدت الأسرة، لمن يراها من الخارج، مستقرة بما يكفي ليحسدها الآخرون على ما وصلت إليه.

جاء صلاح أولًا، ثم لبنى، ثم اتسعت الأسرة بقدوم سمير وشرف وأحمد ومنير. ومع كل طفل زادت المسؤوليات، لكن البيت ظل، في عيني لبنى الصغيرة، مرتبطًا بحضور أبيها. كانت تعرف أن لعادل صالونات يقصدها الناس، وأن في وسعها أن تزوره فيها، فتراه كما يراه الزبائن: رجلًا واثقًا من مهنته، يعرفه الداخلون باسمه.

كانت تحب تلك الزيارة. تقف عند المدخل لحظة، تتأمل المرايا الكبيرة والكراسي والوجوه التي لا تعرفها. ترى أباها منشغلًا بزبون، فيلتفت نحوها ما إن يلمحها. يتغير صوته، ويبتسم، ويجعل لها مكانًا قريبًا منه. لا تحتاج إلى أن تطلب اهتمامه؛ كان يمنحه لها قبل أن

تسأل. ومن موقعها الصغير، كانت تراقب يديه وهما تعملان بثبات، وطريقته في مخاطبة الرجال الذين يقصدونه. كان العالم خارج البيت يبدو كبيرًا، لكن أباها يعرف كيف يتحرك فيه، وهذا وحده كان يطمئنها.

لم يكن عادل يكتفي بأن يفرح بها في الصالون. إذا استعد للخروج، كانت تتعلق بفكرة أن ترافقه. لا يهمها المكان الـذي سيذهبان إليه؛ يكفيها مقعد قريب منه، وطريق تعرف أنها ستقطعه بصحبته. كانت تحدثه عن المدرسة وعن أشياء صغيرة لا تستحق، في نظر الكبار، كل ذلك الانتباه. لكنه كان يصغي إليها، فتعود إلى البيت وهي تشعر أن ما تقوله مهم.

وكانت أم كلثوم ترى أحيانًا أن دلال الأب لابنته يتجاوز الحد. ذات مرة، ارتدت لبنى ثيابًا قصيرة، فاعترضت أمها على ما تلبسه، وقالت:

— هاد الحوايج قصار بزاف.

نظر عادل إلى ابنته، ثم أجاب أم كلثوم:

— خلي البنت تلبس اللي بغات.

لم تكن لبنى تفهم يومها اختلاف وجهتي نظر أبويها، لكنهـا حفظت الشعور الذي تركه موقفه: أن أباها يقف إلى جانبها، وأن وجوده يجعل ما تخشاه أقل رهبة. ستكبر بعد ذلك وتتعلم أن الحب، مهما بدا واسعًا في لحظة، لا يكفي وحده لحماية بيت.

وكان صلاح، الابن الأكبر، موضع فخر أبيه كذلك. يعتني عادل بمظهره، ويضع له أحيانًا ربطة العنق الصـغيرة الـتي يسـمونها «البيبيون»، ثم يصطحبه إلى الصالون. وإذا التفت أحد الزبائن إلى الصبي، بدا الفرح على وجه عادل، وقدمه باعتزاز أب لا يحتاج إلى مناسبة ليفتخر بابنه:

— شوفو ولدي.

لم تكن لبنى تغار من محبة أبيها لصلاح. كانت ترى فرحته بأخيها، وتعرف أن لها هي أيضًا مكانة خاصة في قلبه. لم يخطر لها أن الرجل الذي كان حضوره مصدر طمأنينتها سيغيب يومًا، وأنهـا ستضطر إلى البحث عن أخباره عند الغرباء.

لكن حياة الأسرة لم تكن هادئة دائمًا. خلف أبواب البيت، كانت الخلافات بين عادل وأم كلثوم تشتد أحيانًا، ثم تترك وراءها صمتًا ثقيلًا. كانت أم كلثوم حادة الطبع حين تغضب، لا تتراجع بسهولة. وفي إحدى المشاجرات، اشتدّ الخلاف بينهما حتى أمسكت أم كلثوم بقميص عادل وجذبته نحوها بعنف، لكنه لم يُحرّك ساكنًا، وظل واقفًا أمامها صامتًا. كان الرجل الذي يتحدث بثقة إلى زبائنه يقف في بيته عاجزًا عن إنهاء الخلاف أو مجاراتها في حدته.

وكان عادل يروي أيضًا أن أم كلثوم امتنعت، في بعض فترات الخصام، عن إعداد الطعام له. تلك روايته لما جرى، وليست عذرًا لما اختاره بعد ذلك. بدأ يتناول طعامه خارج البيت، ثم أخذ يتأخر في العودة، واتسعت دائرة سهراته ومعارفه. وبينما كان يبتعد شيئًا فشيئًا، كانت أم كلثوم تواجه أعباء البيت والأطفال. لكل منهما ذاكرته عن تلك السنوات، أما الأبناء فكانوا يعيشون آثار الخلافات دون أن يفهموا أسبابها كلها.

ثم دخلت امرأة أخرى حياة عادل، وأنجب منها طفلًا لم يعترف به في ذلك الوقت. ومضت سنوات طويلة قبل أن يقر أمام أولاده بأن ذلك الطفل ابنه. لم تكن هذه التفاصيل معروفة للأطفال حين وقعت، لكنها كانت جزءًا من حياة أخذت تتشقق بعيدًا عن أعينهم.

ففي الوقت الذي كانت فيه الصالونات توحي بالنجاح، كانت الضرائب تتراكم. الزبائن يدخلون ويخرجون، والمقصات تعمل، والمرايا تعكس صورة رجل يعرف مهنته؛ لكن وراء هذا النظام الظاهر كانت هناك مستحقات لا تُدفع، وحسابات تتأجل، وخوف ينمو كلما اقترب موعد التسوية. لم تبدأ الأزمة بعد سفر عادل، بل كانت قائمة وهو لا يزال في المغرب، مسؤولًا عن عمله وما يترتب عليه.

ثم صارت كلمة «السجن» احتمالًا يخشاه. لم يكن عادل يريد أن يخسر ما بناه، ولا أن يبقى في بيت يثقل عليه بخلافاته، ولا أن يواجه عواقب لم يعد يعرف كيف يتفاداها. في تلك الفترة، بدأت زبونة تتردد على صالونه وتحدثه عن ليبيريا. كانت تسافر إليها، وتعرف تجارًا لبنانيين يعملون هناك. تحدثت عن غرباء تركوا أوطانهم طلبًا لفرصة أفضل، وعن تجارة قد تغير حياة رجل في وقت قصير.

لم يكن اسم ليبيريا يثير في نفسه شيئًا في البداية. ثم سمع كلمة واحدة ظلت تتردد في رأسه: الألماس. أحجار صغيرة، بعضها لا يكاد يزيد على حبة فاصولياء، يمكن أن تباع بمبالغ لا يجني مثلها من الحلاقة إلا بعد سنوات. أخذ يسأل عن التجار والطرق والأرباح، وعما يحتاج إليه رجل يبدأ من الصفر. كل إجابة كانت تفتح سؤالًا آخر، وكل حديث عن الألماس يجعل الصالونات التي يملكها تبدو أضيق مما كانت عليه.

لم يكن السفر بالنسبة إلى عادل مجرد انتقال من بلد إلى آخر. كانت وراءه حياة كاملة لا يمكن طيها مع الثياب في حقيبة: مفاتيح صالونين، وأسماء زبائن يعرف مواعيدهم، وزوجة لم يعد يعرف كيف يبدأ معها حديثًا لا ينتهي بخلاف، وأطفال لا يزالون يظنون أن أباهم قادر على حل كل شيء. كان أسهل عليه أن يتحدث عن فرصة تنتظره في الخارج من أن يشرح لهم لماذا ضاقت عليه الحياة التي بناها بيديه.

أما لبنى فلم تكن ترى في الأمر شيئًا من هذا التعقيد. ما معنى أن يذهب الأب بعيدًا؟ كانت تعرف الغياب القصير، حين ينصرف إلى الصالون ويعود في المساء، وتعرف الانتظار عند الباب إذا تأخر. لكنها لم تعرف غيابًا يحتاج إلى طائرة وبحر وبلد لا تستطيع أن تشير إليه على خريطة. كان الاسم غريبًا عليها، ومع ذلك حاولت أن تحفظه؛ كأن حفظ المكان يجعل الطريق إليه أقصر.

وفي الأيام التي سبقت الرحيل، لم يتغير ترتيب البيت فجأة. استمر الطعام في مواعيده، واستمر الصغار في الشجار والضحك، وظلت أم كلثوم تدبر ما يتطلبه يومها. غير أن الكبار كانوا يعودون إلى الحديث نفسه، فيخفضون أصواتهم حين يقترب أحد الأطفال. كان المختار حاضرًا في هذه الأحاديث؛ فهو الذي سيتسلم العمل ويضمن وصول المال. وبدا الاتفاق، على الورق وفي الكلام، محكمًا بما يكفي كي يترك عادل وراءه كل تلك المسؤوليات.

لكن الوعد الذي يقال بين أخوين في غرفة واحدة لا يستطيع وحده أن يحمي بيتًا كاملًا في مدينة أخرى. كان نجاح الاتفاق يتوقف على أمور لم تختبر بعد: أن تبقى الصالونات عامرة، وأن تُسدد الالتزامات القديمة، وأن يقاوم المختار ما قد يغريه من مال متاح، وأن يسأل عادل عمّا يحدث بدلًا من الاكتفاء بالاطمئنان. لم يكن

الأطفال يعرفون هذه الشروط. كانوا يعرفون فقط أن عمهم سيظل قريبًا منهم، وأن أباهم قال إنه سيعود.

حين قالت لبنى إنها ستنتظره، لم تكن تقدم وعدًا بالمعنى الذي يفهمه الكبار. كانت تصف شيئًا طبيعيًا في عالمها: أن يغيب الأب قليلًا، ثم يظهر. ولهذا كانت عبارة «ما غنغيبش بالزاف» أكبر من مجرد جواب يريح طفلة؛ صارت مقياسًا ستقيس به السنوات القادمة، سنة بعد أخرى، من غير أن تتذكر متى بدأ العد.

وكانت لبنى، في تلك المرحلة، لا تزال تقيس الأيام بما يحدث بينها وبين أبيها. إذا دخلت الصالون ورأته منشغلًا، انتظرت أن يرفع رأسه إليها. لم تكن تحتاج إلى هدية في كل زيارة؛ يكفي أن يناديها، أو أن يسألها عن المدرسة، أو أن يفسح لها مكانًا قريبًا منه. كان اهتمامه يمنحها شعورًا بأن حضورها مهم، حتى وسط الزبائن والمواعيد والضجيج. ولهذا لم يكن الغياب القادم خسارة رجل يرسل المال إلى البيت فحسب؛ كان خسارة تلك الطمأنينة التي تتكون من أفعال صغيرة لا ينتبه إليها الكبار.

ولم تكن أم كلثوم تنظر إلى الأمور بالطريقة نفسها. كانت ترى البيت من ناحية ما يحتاجه: طعامًا، وملابس، ومصروفًا، وأطفالًا يكبرون، وزوجًا يعود متأخرًا أو يتحدث عن فرصة بعيدة. وقد يكون من السهل على من ينظر إلى حياتهما بعد سنوات أن يختصر الخلاف في شخصيتين لا تتفقان، لكن ذلك لا يشرح كيف يتسع الشرخ في بيت يومًا بعد يوم. كان لكل منهما ما يراه ضروريًا، وكان الحوار بينهما يفقد قدرته على جمع الرأيين كلما تراكمت الخصومات.

أما الأطفال فلم يكونوا طرفًا في هذه القرارات، وإن كانوا أكثر من سيتأثر بها. كانوا يتابعون يومهم كما يعرفونه، ويثقون بأن الكبار يستطيعون تدبير ما لا يفهمونه. وكان عادل، حين يتحدث عن السفر، يرى في المستقبل الذي يتخيله وعدًا بالمال والنجاح. لم يكن يعرف أن لبنى ستتذكر من تلك المرحلة شيئًا آخر تمامًا: السيارة التي كانت تنتظره عندها، والصالون الذي كانت تدخل إليه مطمئنة، وكلمات قليلة قالها لها قبل أن يصبح الغياب أطول من قدرتها على العد.

وفي أحد الأيام، جلست لبنى إلى جواره في السيارة، تحدثه عن المدرسة كعادتها. كان يصغي إليها، لكن ذهنه يذهب ويعود إلى البلد البعيد. لم ترَ ذلك الشرود بوصفه إنذارًا؛ لم تكن تعرف أن أباها صار يقارن، في صمته، بين حياة صنعها بيديه وحياة أخرى لم يرَ منها إلا الوعود.

عندما وصل بها إلى وجهتها، نزلت وهي مطمئنة إلى أن الغد سيشبه الأمس. أما هو فبقي لحظة وراء المقود، قبل أن يمضي. لم يشأ أن يفكر طويلًا في الثمن الذي قد يدفعه من يحبهم إن اختار الرحيل.

بعد وقت غير بعيد، ستبحث لبنى عن سيارته فلا تجدها. وسيكون عليها أن تفهم، وحدها، كيف يمكن للطريق نفسه أن يصبح أطول حين يغيب من اعتادت أن تقطعه معه.

الفصل 2

امرأة غيّرت المصير

كبرت الفكرة بسرعة. ليبيريا لم تعد حكاية تقولها زبونة في الصالون. صارت بابًا يمكن لعادل أن يخرج منه قبل أن تغلق عليه الضرائب بابًا آخر. قبل السفر، جلس مع أخيه المختار. الصالونات ستبقى. الضرائب يجب أن تُدفع.

وأم كلثوم والأطفال لهم مبلغ شهري ثابت. قال المختار:

— ولادك ولادي.

كان منير رضيعًا حين عهد عادل إلى أخيه المختار بإدارة الصالونات، وتسوية الضرائب، وإرسال مبلغ شهري إلى أم كلثوم والأطفال. بدا الاتفاق واضحًا، لكن وضوح الوعد لم يكن ضمانًا لتنفيذه.

◆

في البيت لم يكن الأطفال يفهمون معنى السفر كما يفهمه الكبار. كانوا يعرفون فقط أن أباهم سيغيب. اما ابنته لبنى كانت تعرف مكانتها عنده. وتعرف انه يوفي بوعوده وتعرف أنه إذا خرج من الباب يمكنها أن تنتظرعودته.

وقبل أن يرحل، سألته:

— ومن ياخذني للسينما؟

ابتسم عادل.

— ملي نرجع نديك.

قالت بسرعة:

— ما تغيبش بالزاف.

— ما غنغيبش بالزاف.

قال إنه لن يطيل الغياب. ظلت لبنى تتذكر ذلك الوعد حتى صار استحضاره يؤلمها.

◆

سافر عادل إلى ليبيريا وهو يعرف عن البلد أقل مما يلزم رجلًا يترك خلفه زوجة وأطفالًا. وكانت أول عقبة تنتظره عند الوصول، قبل أن تطأ قدماه شوارع المدينة.

عند باب الطائرة، وجد مطارًا متواضعًا لا يشبه الصورة التي نسجها في خياله عن بلد الألماس. ومع ذلك، لم يفقد حماسه؛ فقد جاء يبحث عما وراء المطار، لا عما فيه.

سار مع بقية المسافرين نحو إجراءات الدخول، مطمئنًا إلى أن المرأة المغربية التي حدثته عن ليبيريا تنتظره في الخارج. لكنه فوجئ عند مكتب الجوازات بسؤال لم يكن مستعدًا له:

— أين تأشيرة الدخول؟

لم تكن معه تأشيرة. بل إنه لم يكن يعلم أصلًا أنه يحتاج إليها. حاول أن يشرح موقفه، لكن موظفي الجوازات لم يسمحوا له بالمرور.

راح المسافرون يغادرون تباعًا، بينما بقي عادل في مكانه. كان معتادًا أن يجد حلًّا للمشكلات التي تواجهه في عمله؛ يعرف كيف يرضي زبونًا غاضبًا، وكيف يصلح خطأ في قصة شعر، وكيف يتصرف حين يختلف عاملان في صالونه. أما هنا، فلم يكن يملك سوى الانتظار أمام موظف لا يعرفه، في بلد لا يعرف قوانينه.

تلاشت من ذهنه، للحظات، صور الألماس والفرص التي دفعته إلى السفر. وبدأ يفكر في احتمال أن يُعاد إلى المغرب على متن طائرة أخرى، قبل أن يرى حتى الشارع الأول من البلد الذي علّق عليه آماله.

ماذا سيقول حين يعود؟ وكيف سيواجه أسرته بعدما غادر بحثًا عن بداية جديدة؟ كان يعرف أن مشكلته لم تكن معقدة، وأن سؤالًا واحدًا قبل السفر كان كفيلًا بتجنيبه هذا الموقف. ولعل ذلك ما زاد شعوره بالحرج؛ أن تتعثر رحلة قطع من أجلها كل تلك المسافة بسبب أمر لم يخطر له أن يسأل عنه.

في الخارج، كانت المرأة المغربية تنتظره بين المستقبلين. راقبت المسافرين وهم يخرجون واحدًا بعد الآخر، تبحث عن وجهه دون جدوى. وبعد انتظار، التقت أحد الركاب اللبنانيين الذين كانوا

معه على الطائرة، فأخبرها أن عادل ما زال عند الجوازات لأنه لا يحمل تأشيرة دخول.

فهمت ما حدث، وبدأت تتحرك. استعانت بمعارفها وعلاقاتها، وتحدثت إلى ضباط الجوازات، محاولة إقناعهم بالسماح له بالدخول.

أما عادل، فظل ينتظر، لا يعرف ما يجري في الخارج، ولا إن كانت المرأة قد علمت بما حدث له. كان الوقت يمر بطيئًا، ومع كل مسافر يغادر الصالة، يزداد إحساسه بأنه أصبح وحده في مواجهة قرار لا يملك تغييره.

وبعد محاولات، نجحت المرأة في مسعاها، وسُمح له أخيرًا بدخول ليبيريا دون تأشيرة.

لم تتغير رغبته في النجاح، لكن ثقته بأنه يستطيع تدبير كل شيء بمجرد الحماسة لم تعد كما كانت عند صعوده إلى الطائرة. لقد اكتشف أن الإقدام وحده لا يكفي دائمًا، وأن بعض الأبواب لا تُفتح بالخبرة أو الإصرار، بل بمساعدة الآخرين.

خرج إلى صالة الاستقبال يبحث بعينيه عن المرأة التي تنتظره. وحين رآها، شعر بامتنان عميق، امتزج بشيء من الحرج. لم يكن قد أمضى في ليبيريا سوى ساعات، ولم يبدأ بعد العمل الذي جاء من أجله، ومع ذلك أصبح مدينًا لها بفضل لم يكن يتوقعه.

كان يستطيع أن يرى فيما حدث إنذارًا مبكرًا؛ فهو في بلد لا يعرف قوانينه ولا لغاته ولا طرق العمل فيه. لكنه لم يشأ أن يسمح لهذه البداية بأن تهز قراره.

لقد وصل أخيرًا، وتجاوز أول عقبة. أما ما ينتظره خلف أبواب المطار، فلم يكن يعرف عنه سوى الحكايات التي سمعها، والآمال التي حملها معه من المغرب.

الفصل 3

على عتبة الغربة

لم تتركه تلك المرأة وحده في الأيـام الأولى. سـاعدته في السكن، وقدمت له بعض من تعرفهم، ومن بينهم تجار لبنانيون يعملون هناك. وبما أن عادل لا يعرف مهنة أفضل من الحلاقة، لم يكن يعرف في البداية سوى طريق واحد للرزق: المقص ، وبفضل خبرته في أنواع الشعر خاصة الافريقي استطاع التأقلم مع الوضع وكأنه يبدأ من جديد.

◆

مع مرور الوقت، ازدادت الألفة بين عادل والمرأة المغربية التي ساعدته منذ وصوله إلى ليبيريا. كانت تعرف أنه متزوج، وأن له زوجة وأطفالًا في المغرب، ولم يكن ذلك سرًا بينهما.

وذات يوم، قالت له دون مقدمات:

— عادل، علاش ما نتزوجوش؟

رفع عينيه إليها، ثم ابتسم ابتسامة خفيفة.

— نتزوجو؟ واش بصح كتهضري؟

— وعلاش لا؟ أنا عارفاك، وعارفة ظروفك، ومرتـاحين مـع بعضياتنا.

تغيّرت ملامحه قليلًا.

— ولكن نتي عارفة أنني مزوّج، وعندي ولادي فالمغرب.

— عارفة، وماشي اليوم اللي عرفت.

سكت عادل لحظة، كأنه يبحث عن كلمات لا تجرحها.

— شوفي، أنا جيت لهنا باش نبدّل حياتي، ماشي باش نزيد نعقّدها.

— يعني ما بغيتيش تتزوج بيا؟

— ماشي هادي هي المسألة. أنا خرجت من المغرب وعندي مشاكل كافية. ما بغيتش ندخل راسي فمشاكل جديدة.

نظرت إليه، وقد فهمت أن قراره لم يكن وليد اللحظة.

استكمل عادل حديثه بهدوء:

— اللي فبالي دابا هو نخدم، ونوقف على رجليّ، ونشوف آش غادي ندير فحياتي.

لم يحدث الزواج. بقي عادل يعمل في الصالون، ويسأل عن البلاد التي لا يعرفها، وعن الأحجار التي جاء من أجلها.

وهكذا، ظل عادل يعمل، يسأل، ويتعرف إلى البلد. وكان سؤال واحد يتكرر أكثر من غيره:

— أين الألماس؟

كان الناس يضحكون أحيانًا. فالرجل الذي جاء ليحلق الشعر يسأل كل من يقترب منه عن الحجارة. ثم، ذات يوم، جاءه رجل يحمل حجرًا صغيرًا. ألماسة. عرضها عليه فشراها منه ، اشترى عادل الحجر بنحو مئة دولار. وفي اليوم نفسه تقريبًا استطاع أن يبيعه بنحو ألف.

مئة دولار صارت ألفًا.

احتفظ عادل في ذاكرته بتلك الصفقة. لم تعد ليبيريا وعدًا سمعه من زبونة؛ صارت ربحًا أمسكه بيده.

وكلما دفع ثمن محاولة جديدة، كان يستطيع أن يعود إلى تلك المرة الأولى.

◆

بدأ يشتري معدات. يدفع للعمال. يدفع الرسوم اللازمة للبحث والحفر. ويذهب إلى مناطق يقال إن فيها ألماسًا. بعضها لم يكن فيه شيء. يحفر. يدفع. وينتظر. ثم ينتقل إلى مكان آخر. لكن أول ربح ظل في رأسه مثل دليل لا يقبل النقاش: إذا حدثت مرة، يمكن أن تحدث ثانية.

صار الصالون مكانًا يعود إليه بين رحلتين، لا العمل الذي يقوم عليه يومه.

◆

وفي المغرب، كان المختار في البداية يفي بما وعد. يصل مبلغ إلى البيت. تدور الصالونات. ويبدو أن عادل يستطيع أن يبقى مطمئنًا. ثم أخذ المختار ينشغل بالسهر والشراب. والمال الذي يدخل من العمل لم يعد يخرج في الاتجاه الذي حدده عادل.

لم تُسدَّد الضرائب القديمة، وزادت المتأخرات. ثم بدأ المال الذي يصل إلى الأسرة يتأخر.

لم ينشئ المختار الدين الأول، لكنه تسلم الصالونات وفي ذمتها التزامات معروفة. لم يجعل سدادها أولوية، واستمر التدهور.

كانت الصالونات تتراجع، والمختار يمضي في سهراته. أما البيت فكان يعرف النتائج قبل أن يعرف الأطفال أسبابها.

لكن الخمر، التي كان يلجأ إليها هربًا من واقعه، لم تكن تنجح دائمًا في إسكات ما بداخله. ففي بعض الليالي، كان شعوره بالذنب يخرج منه على هيئة تصرفات غريبة، لا يفهمها الأطفال، ولا تعرف أم كلثوم كيف تتعامل معها.

كان يأتي إلى بيت أخيه في ساعة متأخرة من الليل، مترنح الخطوات، ثقيل اللسان، وقد غلب عليه السكر. يدخل والبيت غارق في النوم، ثم ينادي أم كلثوم بصوت مرتفع:

— أم كلثوم! نوضي الدراري يتعشّاو!

كانت تحاول أن تهدئه، وتخبره بأن الأطفال قد تناولوا عشاءهم وناموا، لكنه لا يكف عن النداء.

— نوضو! نوضو يا ولاد خويا! واش تعشّيتو؟ نوضو اتعشّاو!

يستيقظ الأطفال مذعورين على صوته، يفتحون أعينهم بصعوبة، ويتطلعون إليه من فراشهم، لا يعرفون لماذا جاء عمّهم في هذا الوقت، ولا لماذا يصرّ على إطعامهم. لم يكونوا جائعين. كانوا يريدون فقط أن يعودوا إلى نومهم.

أما هو، فكان يلحّ في السؤال، كأن إطعامهم في تلك الساعة المتأخرة قد يخفف شيئًا من ثقل ما يحمله. لم يكن يدرك أن هؤلاء الأطفال لم يكونوا بحاجة إلى عشاء آخر، بقدر حاجتهم إلى الأمان الذي أخذ يتسرب من بيتهم.

كان المال الذي يفترض أن يحفظ لهم استقرارهم يتبدد، بينما يحاول المختار، في لحظات سكره، أن يطمئن إلى أنهم لم يناموا جائعين. وفي إحدى الليالي، بلغ به السكر حدًا لم يعد معه قادرًا على السيطرة على جسده. دخل الحمّام، ثم عجز عن الخروج منه وحده.

سمعته أم كلثوم، فذهبت إليه، ووجدته في حال يُرثى لها. أمسكت به، وحاولت مساعدته على النهوض والوقوف على قدميه. كانت لبنى هناك. رأت عمّها الذي اعتادت أن تسمع صوته عاليًا وهو يوقظهم في الليل، عاجزًا هذه المرة عن الوقوف دون مساعدة أمها.

لم تكن في عمر يسمح لها بفهم كل ما يجري بين الكبار، لكنها كانت في عمر يكفي لحفظ الصور التي لا تُنسى. وظلت تلك الصورة عالقة في ذاكرتها: عمٌّ يأتي في منتصف الليل ليسأل أبناء أخيه إن كانوا قد تعشّوا، ثم يعجز، من شدة السكر، عن الخروج من الحمّام وحده.

لم تكن تعرف يومها إن كان ما يدفعه إلى إيقاظهم حبًّا، أم ندمًا، أم محاولة متأخرة لإسكات ضميره. لكنها كانت ترى الخوف في عيون إخوتها، والتعب على وجه أمها، ورجلًا يتداعى أمامهم كما كانت أحوال الأسرة تتداعى من حوله.

◆

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه المشاهد تتكرر في بيت الأسرة بالمغرب، كان عادل بعيدًا، في ليبيريا، منشغلًا بالبحث عن الألماس. كان يحفر في الأرض بحثًا عن حجر قد يغيّر مستقبله، بينما كانت الحياة التي تركها وراءه تتغير على نحو لم يكن يتمناه لأسرته.

لم يكن انقطاعه عن البيت كاملًا؛ فقد كانت تصله أخبار من المغرب عبر المكالمات الهاتفية، وعرف شيئًا مما أصاب أعماله وأحوال أسرته. لكن بين أن يسمع الإنسان خبرًا من بعيد، وأن يرى بعينيه ما يحدث لأطفاله، مسافة لا تقطعها مكالمة هاتفية.

لم يرفع أحد عنهم تبعة ما حدث. لم تكن الكلمات التي يرددها المختار ليلًا تصلح ما ضاع في النهار.

غير أن الزمن لم يكن ينتظر عودته. فبينما كان يبحث عن ثروة لم يجدها بعد، كانت أسرته تخسر، يومًا بعد يوم، أشياء لا يستطيع المال وحده أن يعيدها.

الفصل 4

حين سقط البيت

لم يسقط البيت في يوم واحد. في البداية، نقص المال. ثم توقف. ثم جاء ما هو أسوأ.

كانت متأخرات الضرائب قد بدأت قبل سفر عادل، لكنه تركها وراءه حين رحل خوفًا من الحبس. تسلّم المختار إدارة الصالونات، وكان المفترض أن يسدد ما تراكم ويحفظ العمل، إلا أنه ترك الالتزامات تكبر حتى جاءت السلطات إلى الصالونات.

الحساب القديم وصل إلى نهايته. حجز. إغلاق. إفلاس.

لم تكن الكلمات الثلاث تعني الشيء نفسه في الأوراق وفي حياة الأسرة. في الأوراق انتهى نشاط وبدأت إجراءات. أما في البيت فقد انتهت طمأنينة قديمة: أن يكون للأم مكان تعرف كيف تدبره، وللأطفال أشياء يظنون أنها ستظل حيث تركوها. فجأة صار لكل شيء موعد محتمل مع الفقد.

◆

ولم يقف الأمر عند الصالونات. في ذاكرة لبنى، لم يبقَ من تلك المرحلة رقم ضريبة ولا ورقة رسمية. بقي مشهد الأشياء وهي تخرج من البيت. أثاث تعرفه. أشياء كانت في مكانها منذ سنوات. تفاصيل صغيرة لا تبدو ثمينة حتى يأتي أحد ويأخذها.

كأن البيت يُفرغ من ذاكرته قطعة قطعة.

قد ينسى المرء قيمة كرسي أو خزانة حين يملكهما، لكنه يتذكرهما حين يرى المكان الذي كانا يشغلانه فارغًا. لم تكن لبنى تعرف معنى الحجز القانوني، ولم تكن مطالبة بأن تعرفه. كانت ترى أمها تواجه شيئًا أكبر من قدرتها على الاعتراض، وترى عالمًا اعتادته يتراجع من حولها.

وفي النهاية، لم يبقَ معهم تقريبًا إلا ما يرتدونه. الملابس.

◆

ذهبوا إلى بيت الجدة. كان صغيرًا. أصغر من أن يحمل الأسرة كلها، لكنه حملها.

لم يكن بيت الجدة حلًا للأزمة، بل مأوى من نتائجها. فيه صار على كل واحد أن يتعلم كيف يقلل حاجته إلى المكان، وكيف يخفض صوته، وكيف ينتظر دوره في أشياء لم يكن يفكر فيها من قبل. لم تشتكِ الجدران الضيقة، لكن ضيقها كان حاضرًا في كل حركة.

أجساد كثيرة في مساحة قليلة. منير ما يزال رضيعًا. وحاجته إلى الحليب لا تفهم معنى الإفلاس.

◆

في يوم، قالت أم كلثوم للبنى أن تذهب إلى الصيدلية لتأتي بالحليب. لم يكن معها ثمنه. الصيدلي يعرف الأسرة. كانوا زبائن يدفعون حسابهم دائمًا. قالت لها أمها:

— قولي ليه يكتبها علينا ونخلصوه من بعد.

أعطاها الصيدلي العلبة على الحساب.

عادت بالعلبة وهي تعرف أن الرجل لم يرفضها، وأن أخاها سيجد حليبه في ذلك اليوم. ومع ذلك لم يكن الانتصار كاملًا؛ فقد تعلّمت في الطريق أن الحاجة لا تُقاس فقط بما ينقص البيت، بل بما تضطر الناس إلى قوله أمام الغرباء. وكانت أم كلثوم قد دفعت ابنتها إلى هذه المواجهة لأنها لم تجد سبيلًا آخر.

لم تكن صدقة. وهذا تحديدًا ما حفظته لبنى: أنهم كانوا قادرين يومًا على الدفع فورًا، ثم جاء يوم صار عليهم أن يطلبوا وقتًا لثمن حليب طفل.

لم يأتِ الانهيار إلى البيت في هيئة إعلان واحد يمكن للأم أن تشرحه لأطفالها. جاء على هيئة تأخرات صغيرة: مبلغ لا يصل في موعده، وشراء يؤجل إلى الأسبوع التالي، وطلب لا تجيب عنه أم كلثوم كما كانت تجيب من قبل. كان الأطفال يلاحظون التغيير قبل أن يعرفوا اسمه. فإذا سأل أحدهم عن شيء اعتاد الحصول عليه، جاءه الجواب مقتضبًا: ليس الآن.

أما لبنى فكانت تراقب أمها أكثر مما تراقب الأشياء. ترى كيف تحسب ما بقي، وكيف تتوقف قبل أن تشتري، وكيف يصير السؤال

عن الثمن أطول من السؤال عن الحاجة. لم تكن تملك قدرة على تغيير ما يجري، لكنها بدأت تفهم أن هناك فرقًا بين بيت تقل فيه النقود أيامًا ثم تعود، وبيت لا يعرف أهله متى سيأتي المال أصلًا. في النوع الثاني من البيوت، يصبح الانتظار عملًا يوميًا، وتتحول كل مفاجأة إلى عبء جديد.

وحين دخل الغرباء لإخراج بعض الأثاث، لم يكن ما حدث مجرد نقل أشياء من مكان إلى آخر. كانت هناك مواضع تركتها القطع خلفها: مساحة على الأرض بقيت أفتح لونًا من غيرها، وجدار فقد ما كان يستند إليه، وركن صار خاليًا بحيث يمكن رؤية ما وراءه. لا تحتاج الطفلة إلى فهم إجراءات الحجز كي تدرك أن البيت الذي تعرفه يفقد ملامحه. كانت تملك أسماء الأشياء وذكرياتها معها، لكنها لا تملك أن تمنع خروجها.

لم يكن بيت الجدة بعيدًا عن الناس الذين يحبونهم، لكنه كان بعيدًا عن حياتهم السابقة. ضيق الغرف يفرض ترتيبًا جديدًا للنوم والحركة، ويجعل الحديث الخاص مسموعًا لمن لا يُقصد به. لم يعد هناك متسع لأن يغضب كل واحد وحده أو يبكي بعيدًا عن الآخرين. كان منير صغيرًا لا يعرف من كل ذلك سوى أن الجوع يأتي في موعده، وأن الحليب يجب أن يكون حاضرًا. وكان على أمه وإخوته أن يجدوا جوابًا لحاجته كل يوم، بصرف النظر عما ضاع مـن أملاكهم.

لذلك لم تنسَ لبنى طريق الصيدلية. لم يكن الطريق أطول من طرق أخرى عرفتها، لكنه احتاج شجاعة مختلفة: أن تدخل مكانًا اعتادت الأسرة أن تدفع فيه ثمن ما تشتري، ثم تطلب أن يُكتب الحساب إلى حين. لم يكن الصيدلي عدوًا، ولم يُهنها. ومع ذلك خرجت تحمل العلبة كأنها تحمل معرفة جديدة عن الفقر: أنه لا يسلب الإنسان الأشياء فقط، بل يضع على لسانه كلمات لم يتصور يومًا أنه سيحتاج إلى قولها.

في البيت الجديد عند الجدة، لم يعد هناك مكان واضح للحديث عن الماضي. لا فائدة من تذكير الأطفال كل صباح بما كـانوا يملكونه. ومع ذلك كان الماضي حاضرًا في تفاصيل صغيرة: حين يبحث أحدهم عن شيء في مكانه القديم، أو حين يذكر اسم الصالون الذي لم يعد مفتوحًا، أو حين تمر أم كلثوم أمام محل كانت تستطيع دخوله من غير أن تفكر في ثمن ما تحتاجه. لم تكن

الحياة السابقة مثالية، لكنها كانت تمنحهم إحساسًا بأن الغد يمكن توقعه. أما الآن فقد صار الغد سؤالًا.

لم تكن لبنى أكبر إخوتها، لكنها بدأت تنظر إلى الصغار نظرة مختلفة. إذا بكى منير، لم يكن بوسعها أن تقول إن الأمر لا يعنيها. وإذا رأت أمها متعبة، لم تعد تنتظر أن تُطلب منها المساعدة في كل مرة. كانت المسؤولية تتسرب إلى يومها قبل أن تحمل اسمًا واضحًا. وما سيأتي لاحقًا من ترك المدرسة والعمل لم يكن انقلابًا منفصلًا عن هذه الأيام؛ كان امتدادًا لما بدأت تتعلمه وهي ترى البيت يفقد استقراره.

ولم تكن أم كلثوم تعرف متى تنتهي الأزمة. أحيانًا كانت تكفيها ساعات هادئة لتستعيد قدرتها على التدبير، ثم يأتي طلب جديد من أحد الصغار فيعيدها إلى الحسابات. لم تكن تستطيع أن تتصرف كما لو أنها وحدها، ولم يكن أحد يستطيع أن يحمل عنها كل ما عليها. في تلك المسافة بين حاجات الأطفال وغياب الأب تشكلت حياة لبنى الجديدة، من غير إعلان، ومن غير أن يسألها أحد إن كانت مستعدة.

◆

لم ينقطع التواصل بين عادل وأسرته. كانت الرسائل تصل بين الحين والآخر، في زمن لم تكن فيه الاتصالات سهلة، وكان لا يزال في بداية عمله بليبيريا، يحاول أن يستقر ويؤمّن لنفسه مصدر دخل. وبحسب روايته، كان يرسل ما يستطيع من المال إلى أسرته عبر بنك يقع بجوار الصالون الذي يعمل فيه. غير أن أم كلثوم أخبرته لاحقًا، أكثر من مرة، بأن شيئًا من تلك الأموال لم يصل إليها. وظل الأمر دون تفسير واضح، حتى عاد عادل إلى المغرب، حيث قال إنه اكتشف أن الأموال التي أرسلها كانت محتجزة في أحد البنوك المغربية، ولم تتسلّم أسرته شيئًا منها.

ووصلته الأخبار بأن الصالونات ضاعت، وأن الدائنين حجزوا على ممتلكاته، وأن أسرته اضطرت إلى الانتقال للعيش عند الجدة.

◆

وحين وصلته الأخبار بأن الدائنين قد حجزوا على كل ما يملك، وأن أسرته اضطرت إلى الانتقال للعيش عند الجدة، أدرك أن حياته

التي تركها خلفه قد انهارت تمامًا. لكن وسط تلك الخسارة، كان هناك ما أزال خوفًا ظل يطارده منذ رحيله؛ فقد اطمأن إلى أنه لم يعد مهددًا بالحبس بعدما حجز الدائنون على كل ما يملك. عندها اتخذ قراره بالعودة إلى المغرب. ثم أخرج أسرته من بيت الجدة، واستأجر لهم بيتًا أكبر من المسكن الذي كانوا يقيمون فيه عندها.

دخل الأطفال إليه وهم يحملون ملابسهم وقليلًا مما بقي. عاد للبيت شكل البيت. لكن أم كلثوم لم تكن مستعدة لأن تراه يحمل حقيبته مرة أخرى بسهولة. كانت تنظر إلى جواز سفره. وفي رأسها قرار بدأ يتكون.

الفصل 5

شهران فقط

لم تنتظر أم كلثوم فرصة لتخفي جواز عادل. أخذته أمامه. بوضوح. قالت:

— ما غاديش تمشي.

نظر إليها. وفي البيت، لم يكن عادل الرجل نفسه الذي يفاوض العمال والتجار. قال:

— واخا.

وسكت.

◆

بقي في المغرب قرابة شهرين. شهران عادا فيهما إلى شيء يشبه الحياة الزوجية، على الأقل بما يكفي لأن يبدأ عادل من جديد في الحديث عن ليبيريا. فرصة. ألماس. مال سيأتي. حياة ستتغير. كانت أم كلثوم ترفض. ثم يناقشها.

ثم يعود إلى الكلام. حتى أعاد إليها الفكرة التي أخذت منها البيت مرة أولى: ربما يعود هذه المرة بالثروة التي تعوض كل ما خسروا. في النهاية أعادته الجواز، وغادر.

كانت عودة عادل إلى المغرب فرصة ليتأكد بنفسه من مقدار ما تغير. لم يعد يسمع عن الصالونات من وراء خط الهاتف، بل يرى ما آل إليه العمل الذي تركه، ويمشي في شوارع يعرفها وقد تغير موقعه فيها. قبل سفره كان صاحب عمل يفتح الأبواب في الصباح. الآن عاد رجلًا يحاول أن يصلح، في وقت قصير، ما تراكم خلال غيابه. ولم يكن ما حاول إصلاحه قادرًا على إعادة الثقة بالسهولة نفسها.

استأجر بيتًا أوسع لأسرته، فدخل الأطفال إليه وفيهم فرحة حقيقية. ليس من العدل أن تُمحى تلك الفرحة لأن الأيام التالية كانت أصعب. عاد لكل واحد موضع يضع فيه ثيابه، وعاد للأم مكان تتحرك فيه من غير أن تضطر إلى الاعتذار عن ضيق المساحة. غير

أن البيت الجديد لم يكن جوابًا عن السؤال الأكبر: هل سيبقى عادل فيه؟

أم كلثوم لم ترد أن تختبر وعدًا آخر بالانتظار. أخذت جواز سفره أمامه، كأنها تمسك الشيء الوحيد الذي يمكن أن يمنع المسافة من العودة بينه وبين أولاده. لم يكن الجواز سبب الغياب، لكنه صار في عينيها أداته الملموسة. وما دامت تستطيع وضعه بعيدًا عن يده، ربما تستطيع أن تؤخر الرحيل. أما عادل، الذي كان يتحدث في الخارج بثقة عن مشاريعه، فلم يحوّل المواجهة إلى صراخ. سكت، وبقي.

خلال الشهرين التاليين لم تكن الحياة كلها خصامًا. كانت هناك أيام عادية، يأكلون فيها معًا، وتستيقظ الأسرة على وجود الأب في البيت. تلك الأيام هي ما جعل المغادرة التالية أشد قسوة. فالغياب الذي يأتي بعد عودة قصيرة لا يترك الإنسان عند نقطة الانتظار الأولى؛ يمنحه لحظة يصدق فيها أن كل شيء يمكن أن يستقيم، ثم يسحبها منه.

كان عادل يكرر الحديث عن ليبيريا، لا كما يصف رجل مكانًا بعيدًا فحسب، بل كما يتمسك بمنفذ أخير. كان يرى في العودة إليها فرصة لاسترداد خسائره، وربما لإثبات أن سفره الأول لم يكن خطأً كاملًا. أما أم كلثوم فكانت ترى النتيجة التي وقعت بالفعل: بيتًا خسره بعد الحجز على ممتلكاته، وأطفالًا اضطروا إلى بيت الجدة، ووعودًا لا يمكن إطعام رضيع بها. لم يكن خلافهما حول اسم بلد، بل حول ما يستحق أن يُخاطر الإنسان من أجله.

وحين خرج مرة أخرى، لم يُغلق الباب وراء رجل فقط. أغلق على احتمال أن يكون الشهران بداية جديدة. كانت أم كلثوم تحمل طفلًا لم يولد بعد، ولم تكن تعرف أن الفقد القادم سيجعل تلك الفترة القصيرة أكثر مرارة في ذاكرتها.

وكانت لبنى ترافق أمها في بعض مشاويرها، لا لأنها تستطيع أن ترفع عنها كل ما يثقلها، بل لأن السير إلى جوارها صار طريقة صغيرة للمساعدة. حين تقول أم كلثوم إنها تشعر بالاختناق وتريد الخروج قليلًا، لا تحتاج الابنة إلى تفسير طويل. تترك ما في يدها وتمشي معها. بين واجهات القيصارية والوجوه العابرة تستطيع الأم

أن تتنفس بعيدًا عن الغرف التي تذكرها بكل ما تغير، ولو لم تتغير المشكلات نفسها عند عودتها.

لم تكن لبنى تعرف كيف تواسي امرأة تحمل كل هذه المسؤوليات، ولم يكن مطلوبًا منها أن تعرف. كانت تمشي وتصغي، أو تمشيان صامتتين، ثم تعودان إلى البيت. في تلك المشاوير كانت العلاقة بين الأم وابنتها تتغير بهدوء. لم تعد الأم وحدها من تحمي الصغيرة من العالم؛ صارت الصغيرة تحاول، بما تملك، أن تجعل العالم أقل ثقلًا على أمها. ومع كل يوم يمر كان عمر لبنى الحقيقي يتباعد قليلًا عن العمر الذي تعيشه.

أما الحمل الذي بدأ خلال الشهرين القصيرين فلم يكن وعدًا مؤكدًا بفرح جديد. كانت أم كلثوم تحمله في جسدها فيما تحاول أن تحمل البيت كله في يومها. وعندما جاء موعد الولادة، لم تكن الأسرة مستعدة لخسارة أخرى. لم يكن في وسع أحد أن يتوقع ما سيحدث، ولا أن يجد بعد حدوثه كلمات تعيد ما فقد. كانت الحياة، على قسوتها، تواصل مطالبتهم بالطعام والإيجار والاهتمام بالصغار. وهذا ما جعل الحزن نفسه مضطرًا إلى أن يجد مكانًا بين الضرورات.

◆

كان الحمل قد بدأ في الشهرين اللذين قضاهما عادل في المغرب، حين كان جواز سفره في يد أم كلثوم وكانت تحاول أن تطيل بقاءه بين أولاده. ربما لم يكن ظاهرًا بعد، لكن بدايته كانت في تلك الأيام التي بدا فيها البيت، ولو قليلًا، كأنه يستعيد صاحبه.

وحين أعادت إليه جواز السفر ورحل من جديد، بقي الحمل معها. لم يكن الطفل القادم مسؤولًا عن شيء مما جرى، لكنه جاء في وقت كانت فيه الأم تحتاج إلى من يشاركها خوفها لا إلى غياب جديد.

وكان الخوف والضغط أكبر من أن تحتفظ بهما داخل البيت. أحيانًا كانت تقول للبنى:

— خرجيني شوية، مخنوقة.

ويمشيان في القيصارية. أم وابنتها بين الناس، بينما الأب في قارة أخرى.

◆

جاء موعد الولادة. كانت الداية موجودة. لكن الطفل وُلد ميتًا.

لم تحمل الداية إلى أم كلثوم الصرخة التي تنتظرها الأمهات. كان الفقد حاضرًا قبل أن تبدأ الحياة، وفي بيت تعلّم أفراده أن يواصلوا أيامهم مهما كانت الخسارات. لا تكفي كلمة «حـزن» لتصف امرأة عاشت شهور الحمل وحدها، ثم وجدت نفسها أمام صمت المولود الذي انتظرته.

لم يملأ البيتَ العويلُ أو كثرةُ الكلام، بل خيّم عليه حزنٌ صامت، كأن كلًّا منهم آثر أن يحتفظ بوجعه لنفسه. حزنٌ دُفن في أعماقهم، ثم عادت الحياة إلى مجراها، وإن لم تعد كما كانت.

◆

ومع غياب عادل، عاد الضغط إلى البيت الذي استأجره للأسرة بعد خروجها من بيت الجدة. كان أكثر اتساعًا، لكنه لم يشبه البيت الذي عرفوه قبل أن تتبدل أحوالهم. ورغم أن الانتقال إليه منحهم شيئًا من الراحة، فإن الأعباء القديمة سرعان ما عادت لتثقل أيامهم. ولم يطل بقاؤهم فيه؛ فقد أصبح الإيجار فوق طاقتهم، فانتقلوا مرة أخرى إلى بيت أصغر في حي شعبي.

لم يكن الانتقال الثاني انهيارًا مفاجئًا كالانتقال إلى بيت الجدة، بل استنزافًا بطيئًا لما بقي من الأمل. صار على أم كلثوم أن توازن بين الإيجار والطعام وحاجات الصغار، وأن تختار كـل يـوم أي الضرورات يمكن تأجيلها. وفي البيوت التي تضيق فيها الخيارات، يصبح التعليم أحيانًا أول ما يُطلب من أحد الأبناء أن يتنازل عنه.

بدأت المساحة تضيق. وبدأت أعمار الأطفال تكبر. والحسابات لم تعد تسمح بأن يبقى الجميع أطفالًا.

◆

ذات صباح، ارتدت لبنى ملابس المدرسة. كانت تستعد للخروج. نظرت إليها أم كلثوم. ثم قالت الجملة التي ستظل معها بقية عمرها:

— حيّدي حوايج المدرسة.

توقفت لبنى. قالت أمها:

— خاصك تخدمي.

لم يكن شهران كافيين ليعيدا إلى لبنى أباها، ولا إلى أم كلثوم اطمئنانها. وعندما رحل من جديد، عاد البيت إلى انتظار عودته، دون موعد معلوم.

الفصل 6

حيدي حوايج المدرسة

في الصباح الذي طلبت فيه أم كلثوم من ابنتها أن تخلع ملابس المدرسة، لم تقل كلمات كثيرة، ولم تُعقد جلسة عائلية طويلة لتفسير قرارها.

لم تسأل لبنى يومها سؤالًا يمكن أن يغيّر شيئًا. كانت تعرف أن إخوتها يحتاجون إلى مواصلة دراستهم، وأن أمها لا تستطيع تدبير جميع المصروفات وحدها. لكن معرفة السبب لا تجعل الفقد سهلًا.

كان الزي المدرسي، قبل تلك اللحظة، جزءًا من صباحها لا تفكر فيه. ثم صار فجأة علامة على حياة ستواصلها فتيات أخريات من دونها. وحين خلعته، لم تخلع معه رغبتها في أن تبقى بينهن.

كانت هذه أول مرة تكتشف فيها لبنى أن العمل لا يشبه المدرسة؛ ففي الصف كان بإمكانها أن تسأل حين لا تفهم، أما هنا فكان عليها أن تنجز ما يُطلب منها، دون كلل. وكانت تتعلم ذلك يومًا بعد يوم، متجاوزةً ارتباكها وخجلها.

ولم تكن أم كلثوم مرتاحة إلى ما طلبته من ابنتها. كانت الحاجة قد ضيّقت الخيارات حتى لم تجد أمامها بديلًا.

أما لبنى، فلم تحمل يومها دفترًا تكتب فيه ما ضاع، لكنها بدأت تسجّل في ذاكرتها أشياء أخرى: الأجور، وأسماء الأماكن، ومواعيد الحضور، والوجوه التي لا ينبغي أن تنساها.

كانت هذه دروسًا من نوع مختلف، لا تعوّض المدرسة، لكنها ستدخل معها إلى كل باب تفتحه بعد ذلك.

لم تحصل لبنى على وقت كافٍ لتحزن على المدرسة؛ كان عليها أن تعمل. لكن المدرسة لم تختفِ من طريقها لمجرد أنها خلعت ملابسها. ففي الصباح، وهي ذاهبة إلى عملها، كانت تمر بالقرب من الطرق التي تسلكها زميلاتها. تراهن من بعيد بحقائبهن وملابس المدرسة، فيعود إليها شيء من الصباح الذي فقدته.

كانت الطفلة التي اضطرت إلى أن تكبر قبل أوانها تنتظر حتى تبتعد زميلاتها لتكمل طريقها. وإذا لمحت إحداهن مقبلة في اتجاهها،

أسرعت إلى الاحتماء بمدخل أحد البيوت أو الوقوف خلف زاوية حتى تمر. لم تكن تخجل من العمل نفسه، وإنما من الأسئلة التي لا تعرف كيف تجيب عنها: لماذا لم تعودي إلى المدرسة؟ وأين كتبك؟ ولماذا ترتدين هذه الملابس في ساعة الدراسة؟ كانت تخشى أن يرينها خارج الصف، فيعرفن أن حياتها تغيرت قبل أن تجد هي الكلمات التي تشرح بها ذلك.

كان عملها الأول في مؤسسة تبيع النباتات ومستلزمات الزراعة. ومن بين المهام التي كُلّفت بها الرد على الهاتف وإجراء بعض الاتصالات. ولم يكن في بيت أسرتها هاتف، لذلك بدت لها السماعة شيئًا جديدًا لا تعرف كيف تتعامل معه بثقة.

وفي أحد أيام العمل، طلب منها المسؤول أن تتصل برقم هاتف. تناولت السماعة وطلبت الرقم كما أملاه عليها. جاءها صوت امرأة تتحدث الفرنسية بسرعة وبنبرة ثابتة لم تستطع تمييز كلماتها. ظنت أن المرأة غاضبة منها، فأغلقت السماعة مرتبكة. سألها المسؤول:

— شنو قالت ليك؟

قالت بصدق:

— وحدة جاوباتني وكانت كتعَيّط عليا.

أعاد المسؤول الاتصال بالرقم نفسه، ووضع السماعة على أذنه لحظات، ثم ابتسم. فهم من حولها سبب ارتباكها فضحكوا؛ فلم تكن هناك امرأة غاضبة على الطرف الآخر، وإنما تسجيل آلي بالفرنسية يفيد بأن الرقم الذي طلبته غير صحيح.

احمرّ وجه لبنى، ثم شاركتهم الضحك حين فهمت ما حدث. بقيت الواقعة في ذاكرتها، لا لأنها أخطأت، بل لأنها كانت تتعلم في العمل أشياء لم تتح لها فرصة تعلمها من قبل.

وفي كل صباح، كانت زميلاتها يواصلن طريقهن إلى المدرسة، بينما تمضي هي إلى عملها، تحمل مسؤوليات لم تكن تتصور أنها ستواجهها في مثل عمرها.

◆

عملت بعد ذلك فترة في محل للأحذية. عمل وراء عمل. لم يكن أحد منها هو ما تريده فعلًا؛ هي لم تكن تعرف أصلًا ماذا تريد. كانت تعرف فقط أن البيت يحتاج إلى دخل.

◆

أما السؤال القديم فظل معها. لم تكن السنوات التي ابتعد فيها عادل قابلة للعد عندها بالتواريخ، بل بالأشياء التي حدثت ولم يكن حاضرًا ليراها: انتقالات البيت، وأيام المدرسة التي انتهت، والمرات التي احتاجت فيها إلى أن تسأل رجلًا آخر عما تعرفه عن أبيها.

وحين عرفت أن رجلًا عاد من ليبيريا ويعرف عادلًا، لم تفكر في وظيفة أو في محل ذهب. أرادت أن تراه وتسأله. كانت قد حفظت كلمات فرنسية قليلة تكفي لفتح الحديث، لكنها لم تعرف كيف تحمي نفسها مما قد تسمعه.

في اللقاء، الذي ظلت كلماتـه الأولى حاضـرة في ذاكرتهـا، اكتشفت لبنى أمرًا لم يخطر لها: أن الخبر عن الأب قد يكون أقسى من غيابه. لم يكن أصعب ما في الموقف أن الرجل طلب منها أن تنساه، بل أن عليها بعد ذلك أن تعود إلى بيتها، وأن تأكل وتنام وتستيقظ، كأن شيئًا لم يتغير.

حين عرفت لبنى أن رجلًا عاد من ليبيريا ويعرف أباها، لم تكن قد تعافت من فكرة الغياب. كانت قد تعلمت أن تعمل وتعود إلى البيت وتخفي تعبها أحيانًا، لكن شيئًا من الطفلة التي كانت تنتظر عند باب المدرسة ظل حاضرًا. لهذا ذهبت إلى الرجل كما يذهب المرء إلى خبر طال انتظاره: يسرع في الوصول إليه ويخاف، في الوقت نفسه، مما قد يسمعه.

ما قاله عن الرسائل لم يترك لها فرصة للاطمئنان. لو أخبرها أن أباها مريض أو فقير، لوجدت في الخبر شيئًا تستطيع أن تفهمه. أما أن تكون الرسائل قد وصلت وبقيت مغلقة، فذلك باب لا تعرف كيف تدخل منه إلى تفسير واحد. هل كان عادل يخشى الأخبار؟ هل ظن أنها لا تحمل ما يستحق القراءة؟ أم أنه كان يفضل ألا يعرف؟ لم يكن عندها دليل على أي جواب. ومع ذلك كانت الصورة أشد إيلامًا من كثير من الإجابات الممكنة.

في مساء ذلك اليوم، حين أخبرت أمها عن فرصة العمل، بقي الجزء الآخر من الزيارة حبيسًا في صدرها. لم يكن الصمت كذبًا مريحًا؛ كان عجزًا عن حمل الخبر إلى شخص آخر. وقد تعلمت لبنى، في تلك السنوات، أن بعض الحقائق لا تصبح أخف حين تُقال بصوت عالٍ. لكنها أيضًا لا تختفي لأننا لم نقلها.

وحين وقفت في اليوم التالي أمام محل الذهب، لم تكن تدخل إلى المهنة التي ستصنع مستقبلها وهي تعرف نهايتها. كانت تريد عملًا يساعد البيت، ولا أكثر. أما الرجل فكان قد رآها بالأمس فتاة تسأل عن أبيها، ثم رآها اليوم تحاول أن تقف مستقيمة في ثياب اختارتها كي تبدو أكبر من عمرها. بين الزيارتين تغير شيء لا يُرى في الملامح بسهولة. صار عليها أن تتعامل مع المكان لا باعتباره مصدر خبر، بل باعتباره بداية نهار طويل من المسؤولية.

أمام الواجهة الزجاجية، كانت القطع تلمع في ضوء المحل. لم يكن بوسعها أن تتخيل أنها ستملك يومًا واجهة تشبهها. لو قال لها أحد ذلك لظنت أنه يحاول مواساتها. لم يكن الحلم قد وُلد بعد؛ كانت الحاجة وحدها هي التي تقود خطواتها.

حين عرض عليها أن تأتي إلى محل المجوهرات في اليوم التالي، لم ترَ في العرض خلاصًا ولا مكافأة. كان العمل ضرورة، والضرورة لا تنتظر حتى يهدأ الحزن. ولذلك لم يكن السؤال الذي شغلها وهي تغادر: لماذا اختارني هذا الرجل؟ بل: هل أستطيع أن أدخل غدًا وأعمل، بعد كل ما سمعت؟

الفصل 7

الحزن كيبقى برا الباب

في صباح اليوم التالي، لم ترد لبنى أن تبدو في الرابعة عشرة. ارتدت ملابس بلون موف، واستعارت من صديقتها بعض المكياج، وانتعلت حذاءً ذا كعب عالٍ يجعل خطواتها أبطأ، لكنه يضيف إلى عمرها، في ظنها، سنوات قليلة. ذهبت إلى محل الذهب وهي لا تعرف أي عمل ينتظرها.

نظر إليها صاحب المحل. كان يعرف قصتها، ويعرف ما قاله لها عن عادل، لكنه لم يستقبلها بالشفقة. قال لها:

— الحزن كيبقى برا الباب.

ثم أضاف، وهو يشير إلى ما حوله:

— واللي تشوفي ولا تسمعي هنا، ما يخرجش لبرّا.

هزت رأسها. لم تكن تعرف بعد كم تحتاج تجارة الذهب إلى عين منتبهة ولسان يعرف متى يصمت.

◆

لم تبدأ لبنى من خلف المكتب، ولا من الواجهة التي يقف أمامها الزبائن. بدأت من الأرض، ومن الزجاج الذي كانت تلمّعه كل صباح، ومن الأعمال الصغيرة التي لا يلتفت إليها أحد إلا إذا لم تُنجز. وكانت تذهب إلى المقهى القريب لتحضر القهوة الصباحية لصاحب المحل، ثم تعود إلى التنظيف والترتيب.

وكان يرسلها في مشاوير متكررة: تشتري ما يحتاجه المحل، أو توصل غرضًا إلى مكان آخر، أو تعود برسالة من أحد معارفه. تقطع المسافات مشيًا على قدميها، ثم ترجع لتجد عملًا جديدًا ينتظرها. لم تكن المشاوير وحدها ما يتعبها، بل شعورها بأن النهار يبدأ من جديد كلما ظنت أنه أوشك على الانتهاء.

كان صاحب المحل يراها تدخل بالقهوة أو تعود من مشوار، ويتابع كيف تنفذ ما يطلبه منها. لم يكن يطيل الحديث معها، لكنه لاحظ أنها تتذكر التعليمات من المرة الأولى، وأنها لا تحتاج إلى من يذكرها بكل تفصيل. أما هي، فكانت تراقب ما يجري خلف الزجاج

وهي تلمّعه: وجوه الزبائن، وطريقة سؤالهم عن القطع، وتغير أصوات البائعين حين يبدأ الحديث عن الثمن.

◆

ذات صباح، خرج صاحب المحل لقضاء أمر قريب، وترك لبنى تلمّع إحدى الواجهات. دخلت سيدة تسأل عن قطعة مجوهرات كانت قد شاهدتها في زيارة سابقة. لم يكن من اختصاص لبنى أن تفتح الخزائن أو تعرض القطع، لكنها تذكرت السيدة، وتذكرت الخاتم الذي أطالت النظر إليه.

— مول المحل ما كاينش دابا، ولكن غادي يرجع قريب.

أشارت السيدة إلى الواجهة وسألت عن الخاتم. قالت لبنى، بعد تردد قصير:

— إلا كنتي كتقصدي داك الخاتم اللي شفتي المرة اللي فاتت، راه ماشي فهاد الواجهة.

— وكيفاش عرفتي؟

— حيت تفكرتك ملي كنتي كتشوفي فيه.

لم تفتح لبنى شيئًا، ولم تلمس قطعة واحدة. طلبت من السيدة أن تنتظر صاحب المحل، وحين عاد وجدها لا تزال هناك. وبعد أن انصرفت، سأل لبنى كيف عرفت الخاتم الذي تقصده. أجـابت ببساطة أنها رأته من قبل وتذكرت الزبونة.

لم يمدحها ولم يعدها بشيء؛ اكتفى بأن سألها كيف تذكرت الزبونة، ثم عاد إلى عمله. أما لبنى، فواصلت ما كانت تفعله من غير أن تعرف إن كان قد رأى في تصرفها شيئًا يستحق الاهتمام.

◆

وبعد مدة، أرسلها لشراء بعض الأغراض. عادت بالمشتريات وبقية النقود، وشرحت له أن البائع أعطاها مبلغًا زائدًا عن الحساب، وأنها انتبهت إلى الخطأ ورجعت لتصححه قبل أن تعود إلى المحل.

— وعلاش رجعتي؟

استغربت السؤال أكثر مما استغربت الخطأ نفسه.

— حيت ماشي فلوسي.

لم يقل شيئًا. كان يعرف أن من يعمل في الذهب يحتاج إلى أكثر من القدرة على إقناع الزبائن؛ يحتاج إلى ذاكرة، وحسن تصرف، وأمانة لا تتبدل حين لا يراه أحد. وبدأ يرى هذه الخصال في الفتاة التي كان يرسلها لتنظيف الزجاج وإحضار القهوة.

ومع ذلك، لم ينقلها إلى المكتب. ظل يراقبها ويختبر قدرتها على تحمل المسؤولية، فيما استمرت هي في الأعمال نفسها، لا تعرف ما الذي يراه فيها.

◆

مضت سنتان تقريبًا على ذلك الحال. لم تكن لبنى تشتكي من كل مهمة، فقد عرفت مبكرًا أن البيت يحتاج إلى دخلها. لكنها كانت تعود مرهقة من الوقوف والمشي والتنظيف، حتى صار التعب يسبقها إلى البيت. وذات يوم قالت لأم كلثوم إنها لم تعد تريد الاستمرار في محل المجوهرات.

لم تطلب ترقية، ولم تتحدث عن مستقبل في تجارة الذهب. قالت فقط إنها تعبت، وإنها لا تستطيع أن تمضي عمرها كله في التنظيف والمشاوير. رأت أم كلثوم ما بلغته ابنتها من إنهـاك، فذهبت إلى صاحب المحل وأخبرته أنها تريد ترك العمل.

استمع الرجل إلى أم كلثوم، ولم يجادلها طويلًا. ثم قال:

— خليها تجي غدا.

لم يجب الرجل أم كلثوم بقبول استقالة ابنتها أو رفضها. طلب أن تأتي لبنى بنفسها في الغد. وعادت الأم بهذا الجواب، فيما بقيت الفتاة تتساءل عما ينتظرها.

— هاد المكتب ديالك.

نظرت إلى المكتب ثم إليه، غير واثقة مما سمعت. أوضح لها أنه لاحظ طوال العامين قدرتها على الفهم والتذكر وحفظ الأمانة، وأن تجارة الذهب تحتاج إلى أكثر من البيع: تحتاج إلى دقة، وحسن تصرف، ومعرفة بما ينبغي أن يبقى داخل المحل.

— من اليوم غادي تبداي تتعلمي الخدمة.

جلست لبنى إلى المكتب للمرة الأولى. كانت قد جاءت تريد أن تترك المكان، فإذا بها تدخل إليه من باب آخر. ولم تكن تعرف أن السنتين اللتين ظنتهما ضائعتين قد منحتاها، بصبرها وملاحظتها، أول ما تحتاج إليه لتبدأ حياتها في عالم المجوهرات.

لم يكن انتقالها إلى المكتب يعني أنها أصبحت تعرف أسرار المهنة. كان أمامها الكثير لتتعلمه؛ الأوزان والحسابات، وأسماء القطع، وطرائق التعامل مع الزبائن. لكنها كانت تعرف المكان جيدًا، وتدرك أن الثقة فيه لا تُمنح بسهولة.

من وراء الزجاج، شاهدت كيف يختلف الزبائن. بعضهم يعرف ما يريد ويذكر السعر قبل أن ينظر إلى القطعة، وبعضهم يطيل المقارنة، وبعضهم لا يسأل عن الذهب بقدر ما يسأل عن الهدية التي تصلح لشخص ينتظرها. لم تكن لبنى تقف في موقع البائع، لكنها بدأت تفهم أن التجارة ليست أرقامًا فقط. هناك من يشتري ليحتفل، ومن يشتري ليعتذر، ومن يتردد لأن المبلغ أكبر مما يستطيع. كانت الوجوه والعبارات تترك في ذاكرتها آثارًا لا تقل عن أسماء القطع.

ومع مرور الأيام، بدأت تفهم طبيعة المكان الذي أمضت فيه عامين دون أن تتصور أنها ستجلس يومًا خلف مكتبه. لم تكن تسأل عن كل شيء، بل تراقب وتصغي، وتحاول أن تفهم قبل أن تتحدث. كانت تدرك أن الانتباه ضرورة في هذه المهنة، وأن الفضول قد يفقد صاحبه ثقة لا تُشترى بالمال.

لم تتغير حياتها في يوم واحد، لكن شيئًا أساسيًا تبدّل. لم تعد تلك الفتاة التي تدخل المحل لتؤدي أعمال التنظيف وتخرج منه متعبة، بل أصبحت تتعلم مهنة يمكن أن تفتح لها طريقًا لم تكن تتخيله.

في المحل، بدأت لبنى تتعلم أن معرفة المجوهرات لا تقتصر على أسماء القطع وأوزانها وأسعارها. كان عليها أن تعرف كيف تتعامل مع الناس، وأن تفهم ما يُطلب منها قبل أن تتصرف. ولم يكن أحد ينتظر منها أن تتقن كل شيء منذ البداية؛ كانت تخطئ أحيانًا، ثم تتعلم كيف تصحح خطأها.

وكان هناك فارق آخر لم تتبينه في البداية. في المدرسة كانت المعرفة تأتي في كتب وصفحات متتابعة، أما هنا فكانت موزعة بين

أصوات الناس وحركات أيديهم. ترى الزبون يغيّر رأيه في اللحظة الأخيرة، فتفهم أن الثقة لا تُفرض. وتسمع صاحب المحل يرفض صفقة لا تناسبه، فتدرك أن البيع ليس قبول أي مبلغ. وتراقب الطريقة التي تُعاد بها القطعة إلى مكانها بعد أن يخرج الزبون من غير شراء، فتتعلم ألا تُظهر خيبة البيع على وجهها.

لم تكن هذه الدروس تعويضًا عن تعليمها، لكنها أصبحت خبرة تستند إليها.

وفي المحل، تعلّمت أيضًا معنى مختلفًا للانتظار. كانت تنتظر أن ينتهي الزبون من الاختيار، أو أن يعود صاحب المحل، أو أن تُفتح الخزانة لتخرج منها قطعة بعينها. وكان بوسعها أن تستثمر تلك الدقائق في ترتيب الواجهة أو مراجعة ما حفظته من أسماء القطع.

أما انتظار عودة أبيها، فكان شيئًا آخر؛ انتظارًا لا تعرف متى ينتهي، ولا تملك أن تفعل شيئًا لتقصير مدته. وربما لهذا تعلقت بالعمل رغم تعبها، فقد وجدت فيه ما تستطيع أن تنجزه بيديها، بدلًا من أن تظل حياتها معلقة بما قد يحدث يومًا.

وكان هناك جانب آخر من حياة المحل لم يعلّمها إياه أحد بالكلمات؛ أن تعرف متى تسأل، ومتى تلتزم الصمت. فإذا تحدث الزبائن عن أمور خاصة، لا تتدخل. وإذا اختلف اثنان في الثمن، لا تُظهر دهشتها. وإذا غاب صاحب المحل، لا تتصرف في الذهب كما لو أن ثقته بها تسمح لها بكل شيء.

لم تكن هذه القواعد مكتوبة، لكنها كانت تتعلمها من نظرة أو موقف. ومع مرور الوقت، أدركت أن ما ظنته أعمالًا صغيرة طوال السنتين الماضيتين قد درّبها على الانتباه إلى ما يجري من حولها دون أن تفقد هدوءها.

وكانت، كلما عادت إلى البيت، تعرف أن نهارها لا ينتهي عند باب المحل. هناك أم تسأل عن يومها، وإخوة يحتاجون إلى أشياء، ومصروف يجب أن يكفي. لم يكن في حياتها متسع لأن تحتفل بكل خطوة تتقدمها في العمل، لكنها كانت تشعر بالتغيير في نفسها.

لم تعد تلك الفتاة التي ارتبكت يوم سمعت التسجيل الفرنسي في الهاتف، وظنّت أن امرأة غاضبة تصرخ في وجهها. صارت أكثر قدرة على التعامل مع المواقف الجديدة، وأقل خوفًا من الخطأ. كانت تعرف الآن أن ما تجهله اليوم يمكن أن تتعلمه غدًا.

ولم تكن تفكر بعد في امتلاك محل خاص بها، لكن خبرتها كانت تتسع، وثقتها بنفسها تنمو بهـدوء. ومـع كـل يـوم تقضـيه بيـن المجوهرات والزبائن، كانت تقترب، دون أن تدري، من الطريق الذي ستختاره لنفسها فيما بعد.

الفصل 8

فين البنت اللي كانت معاك؟

لم يكن صاحب المحل من التجار الذين ينتظرون أن يدخل الزبون إليهم. كان يعرف أن بعض الزبائن لا يأتون إلى السوق أصلًا. عليك أنت أن تصل إليهم.

◆

كان يدخل إلى القصور الملكية المغربية، وإلى بيوت وإقامات أمراء خليجيين في المغرب. أحيانًا بموعد. وأحيانًا من دون موعد واضح، مستندًا إلى علاقاته وجرأته وقدرته على فتح الباب بالكلام. وبدأ يأخذ لبنى معه.

◆

لم تكن تذهب لتقف في الخلف. كان يلبسها بعض القطع. عقدًا. أساور. ألماسًا. ثم تدخل أمام الزبائن. القطعة على الجسد ليست هي القطعة في العلبة. وهو كان يعرف ذلك. ولبنى تعلمت بسرعة كيف تقف، ومتى تتكلم، ومتى تترك للقطعة نفسها أن تفعل الباقي.

◆

كانت الزيارات تنجح. تخرج قطع كثيرة من الصناديق ولا تعود. وكان صاحب المحل يعرف أن حضور لبنى صار جزءًا من العرض، لا مجرد مرافقة.

لم تكن قيمتها في المجوهرات التي ترتديها؛ تلك كانت تعود إلى علبها في نهاية الزيارة. قيمتها في أنها تعلمت أن تمنح القطعة حضورًا وأن تتعامل مع من أمامها بثقة. كانت الفتاة التي بدأت تنظف الأرض تقف الآن في أماكن لم تتخيل دخولها، وتفهم أن المهارة قد تفتح أبوابًا لا يفتحها المال وحده.

لكنه عرف قيمته الحقيقية في يوم ذهب من دونها. دخل على أحد الأمراء بالبضاعة نفسها تقريبًا. نظر الأمير إلى المجوهرات. ثم إليه. وسأله:

— فين البنت اللي كانت معاك؟

قال إنها لم تأتِ هذه المرة. رد الأمير باقتضاب:

— إيوا سير.

خرج الرجل ولم يبع شيئًا.

◆

حين عاد إلى المحل، لم تحتج لبنى أن تسأله إن كانت الزيارة نجحت. عرفت من وجهه. قال لها ما حدث. ولأول مرة فهمت بوضوح أن وجودها لم يعد تفصيلًا.

◆

لم يأتِ النجاح إلى لبنى في هيئة لحظة واحدة. كانت هناك أيام تخرج فيها من المحل وقد باعت جيدًا، وأيام تمر فيها الساعات بطيئة ولا يتحقق ما تنتظره. تعلمت أن لا تخلط بين يوم ناجح ومهنة ناجحة، وأن الحساب الذي يبدو رابحًا عند نهاية النهار قد يخفي التزامات لا بد من الوفاء بها. كان المال يمر بين يديها، لكنها تعرف من طفولتها أنه يستطيع أن يختفي بسرعة إذا لم يجد من يحفظه.

ومع اتساع خبرتها، أخذت تنظر إلى الواجهة على نحو مختلف. لم تعد ترى فيها ذهبًا موضوعًا خلف الزجاج فحسب، بل قرارات: أي قطعة تُعرض أولًا، وأي زبون يحتاج إلى شرح، ومتى ينبغي أن يصمت البائع ليترك للمشتري فرصة الاختيار. لم تُلقَ عليها هذه المعرفة في درس واحد. جاءت من تكرار الأيام، ومن أخطاء صغيرة لم يكن من الممكن أن تتجنبها كلها، ومن ملاحظات صاحب المحل الذي كان يعرف أن الفتاة التي بدأت بالتنظيف صارت قادرة على فهم ما يدور أمامها.

وفي البيت بقيت لبنى ابنة وأختًا قبل أن تكون موظفة ماهرة. لا تنتهي مسؤوليتها حين تُغلق أبواب المحلات؛ هناك أم تنتظر ما يساعد على تدبير المصروف، وإخوة لهم احتياجاتهم، ومنير الذي كانت له معها علاقة تتجاوز كثيرًا ما تفرضه الأخوة عادة. لم تكن هذه الأعباء تمنحها وقتًا طويلًا لتفكر في المستقبل. ومع ذلك، بدأت فكرة صغيرة تنمو: إذا كانت تستطيع أن تتعلم كل هذا في محل يملكه رجل آخر، فلماذا لا يكون لها يومًا محلها؟

لم تتخذ قرارًا فورًا. كان الحلم في بدايته أقرب إلى سؤال تخشى أن تقوله بصوت مرتفع. فامتلاك محل لا يعني الوقوف وراء مكتب فحسب؛ بل يعني دفع الإيجار، وشراء البضاعة، والوفاء للناس بحقوقهم، وتحمّل أيام الركود كما تُحتمل أيام الربح.

وكانت لبنى تعرف ثمن العجز عن السداد أكثر مما تعرفه فتيات كثيرات في سنها. ربما لهذا لم يكن الحلم عندها مجرد رغبة في الثراء، بل رغبة في ألّا تبقى حياتها كلها معلّقة بقرار شخص آخر.

في القصور، تعلّمت أشياء لم تكن ستتعلّمها وهي تنظّف الزجاج. كيف تُعرض القطعة قبل أن يُقال سعرها، وكيف يقرأ البائع الشخص الذي أمامه، وكيف يمكن لحضور إنسان أن يزيد قيمة ما يقدّمه.

وبدأت فكرة صغيرة تزورها أحيانًا:

إذا كنت أستطيع أن أبيع كل هذا لغيري... فماذا لو جاء يوم أبيع فيه لنفسي؟

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الفكرة تنضج في المغرب، كان صلاح يستعد للسفر إلى ليبيريا، حيث يقيم والده عادل. كانت وجهة كلٍّ منهما مختلفة؛ لبنى تتطلع إلى مستقبل تصنعه بيديها، وصلاح يستعد للقاء الأب الذي طال غيابه عن الأسرة.

الفصل 9

الابن في بلاد الأب

كان صلاح أكبر أبناء عادل. وأول من كبر بما يكفي ليتذكر الحياة قبل أن تتغير. يتذكر الصالونات. أناقته الصغيرة و«البيبيون» التي كان عادل يحب أن يراه بها. ثم يتذكر ما جاء بعد ذلك. الغياب. الإفلاس. وبيت الجدة.

◆

تواصل صلاح مع عادل طالبًا فرصة عمل، وفي عام 1977 سافر إلى ليبيريا وهو يحمل صورة غير مكتملة عن الحياة التي بناها أبوه هناك. لم يكن ذاهبًا لمجرد العتاب؛ كان يريد عملًا ومستقبلًا، ويريد أيضًا أن يرى بعينيه ما الذي استحق كل تلك السنوات من الغياب. ساعدته لبنى فيما احتاجه للسفر، وبينما كانت تبني مكانها في تجارة الذهب، كان أخوها الأكبر يتجه إلى البلد الذي أخذ أباه من الأسرة.

◆

كانت صدمة صلاح الأولى في ليبيريا هي المحل. لم يجد تجارة ألماس مزدهرة ولا ثروة تعوض ما ضاع من عمر الأسرة، بل وجد أباه يعمل في محل حلاقة صغير، وأحواله أبعد ما تكون عن الصورة التي رسمها له الغياب. وقف ينظر إلى المكان، وإلى الرجل الذي كان يذكره صاحب صالونات ناجحة في المغرب، ولم يستطع أن يخفي خيبة أمله.

لم تعجبه الحياة هناك، ولم يخفِ ذلك. ومع هذا، لـم يكـن الانصراف سهلًا؛ فقد جاء محتاجًا إلى فرصة، وكان عادل نفسه بحاجة إلى من يساعده. بقي صلاح مع أبيه وعمل إلى جواره، لا لأن الخلاف انتهى، بل لأن الحاجة جعلتهما يتقاسمان الأيام رغم ما بينهما من عتاب.

عاش صلاح مع أبيه ورأى ما لا يمكن للعائلة في المغرب أن تراه: رجلًا يشتاق إلى أولاده، يسأل عنهم، وقد يبكي حين يتذكرهم، ثم يعود في اليوم التالي إلى العمل نفسه والحياة نفسها. وكان

بعض القادمين من المغرب يطمئنون عادل إلى أن أسرته بخير، بل يبالغون أحيانًا في وصف حال الأبناء، فيصدق ما يسمع أو يريد أن يصدقه.

◆

وكان صلاح يسافر إلى المغرب بين حين وآخر. وفي بعض تلك الزيارات كان عادل يعطيه مالًا ليوصله إلى أم كلثوم والأسرة. وهنا بقيت بين الأب وابنه حكاية أخرى لم تُحسم من رواية واحدة: فقد ذكر عادل لاحقًا أن صلاح، في إحدى المرات، لم يوصل المال الذي ائتمنه عليه، وأنه اشترى لنفسه بدلًا من ذلك حذاءً غالي الثمن على طراز أحذية رعاة البقر في تكساس. تلك كانت رواية عادل للواقعة؛ أما ما حدث بالتفصيل، فلم يكن في يد لبنى ما يكفي للجزم به.

لم تكن العلاقة بين صلاح وعادل صافية بعد ذلك. كان صلاح قد رأى بعينيه حجم الخيبة التي تركها سفر الأب، ثم اضطر إلى البقاء والعمل معه، فيما ظل عادل يحمل بدوره روايته الخاصة عن بعض ما جرى بينهما. لم يكن أحدهما يملك القصة كلها من زاوية الآخر.

كان صلاح يحمل إلى ليبيريا ذاكرة لا يستطيع أن يضعها جانبًا. كان صلاح في الثالثة عشرة حين غادر والده إلى ليبيريا عام 1967. ولهذا عرف شيئًا من الفارق بين بيت كانت الصالونات تنفق عليه وبيت اضطر إلى أن يطلب الحليب على الحساب. ومع ذلك، لم يكن سفره محاكمة لأبيه. كان شابًا يريد أن يعمل، وربما أراد أن يرى بنفسه إن كان في ذلك البلد شيء يستحق كل هذه السنوات.

أمام الصالون الصغير، لم يجد تفسيرًا جاهزًا. الرجل الذي كان يراه أنيقًا في المغرب ما زال يعرف مهنته، لكن المكان لا يشبه الصورة التي بقيت في ذاكرة الابن. لم يكن صلاح يستطيع أن يسأل عن الأرباح من دون أن يتذكر الخسائر، ولا أن يرى تعب أبيه من دون أن يشعر بشيء من الشفقة. كان في الغربة رجلان يربطهما اسم العائلة، لكن بينهما سنوات لم يعيشاها معًا، ولم يكن العمل المشترك كافيًا لمحوها.

وحين اختلفا، لم يكن كل خلاف دليلًا على انعدام المحبة. قد يغضب الابن لأنه كان ينتظر أكثر، ويغضب الأب لأنه يسمع في سؤال ابنه اتهامًا لا يريد الاعتراف به. ثم يأتي صباح جديد يضطران

فيه إلى فتح الصالون، واستقبال الزبائن، والقيام بالأعمال التي لا تنتظر صفاء النفوس. كانت الحياة اليومية تفرض عليهما أن يتعاونا قبل أن يتفقا.

وفي المغرب كانت لبنى تنتظر أخبارهما. لم تعد تستطيع أن تتخيل عادل ثريًا لمجرد أنه ذهب إلى بلد الألماس؛ صار للصورة وجه آخر، أكثر تعبًا وأقل بريقًا. ومع ذلك لم يكن في وسعها أن تتخلى عن الأمل في أن يكون بخير. فالابنة التي عرفت أن رسائل الأسرة بقيت مغلقة لا تتوقف فجأة عن الرغبة في معرفة أحوال أبيها. إنها تريد الحقيقة، ولو جاءت مخالفة لكل ما انتظرته.

ولم يكن ما رواه عادل عن المال الذي أرسله مع صلاح أمرًا يسهل حسمه. ظل في حدود رواية الأب، لا حكمًا على الابن. في العائلات التي تتوزع بين بلدين، يمكن لحكاية واحدة أن تعيش سنوات بصيغ متباينة. وكان من الأجدر بلبنى أن تترك ما لا تعرفه يقينًا في موضعه، بدل أن تسمح له بابتلاع ما تعرفه: أن الأسرة دفعت ثمن الغياب، وأن صلاح حاول بدوره أن يصنع حياة مختلفة.

ومع الأيام صار صلاح يعرف أن الإنسان قد يحن إلى أسرته، ثم يعجز عن اتخاذ القرار الذي يعيده إليها؛ وقد يلوم أباه على الغياب، ثم يجد نفسه معتمدًا عليه في بلد غريب. لم يكن ذلك تبريرًا لأحد، بل وجهًا آخر من التعقيد الذي خلّفته سنوات البعد.

وبالنسبة إلى لبنى، كان وجود صلاح إلى جوار عادل أمرًا مطمئنًا وملتبسًا في آن واحد. أخوها صار قريبًا من أبيهما، يعرف كيف يعيش وما يعمل، لكنه عاد أيضًا بأخبار لا تشبه صورة الثروة التي ظلت الأسرة تتخيلها. لم يعد الأب مجرد اسم بعيد في ليبيريا؛ صار رجلًا له محل صغير، وحياة صعبة، وخلافات لا تمحوها القرابة.

ليس لأن الحقيقة لا تهمه، بل لأن الاطمئنان أسهل من مواجهة ثمن الغياب.

◆

كانت تلك المعرفة أثقل من أن تُختصر في جملة واحدة ينقلها إلى المغرب. فقد يشتاق الإنسان إلى من تركهم، ثم يواصل الحياة التي أبعدته عنهم. وصلاح، وهو يرى ذلك عن قرب، بدأ يفهم أن الحب وحده لا يصلح ما أفسدته القرارات.

◆

وفي المغرب، كانت لبنى تسير في شارع قريب من عملها حين توقفت أمام محل صغير معروض للبيع. لم تدخل، ولم تكن تحمل ثمنه، لكنها وجدت نفسها تتخيل كيف يمكن أن يصبح المكان لها. لم تكن تعلم أن الوقوف أمام ذلك الباب سيقودها إلى أربعة أيام تختبر فيها قدرتها على تحويل الخيال إلى قرار.

الفصل 10

أربعة أيام

كان المحل الذي لمحته لبنى في الشارع صغيرًا، لكنه ظل يشغلها بعدما ابتعدت عنه. لم تكن قد خرجت في ذلك اليوم لتشتري مشروعًا، ولم يكن لديها رأس المال الذي يجعل الأمر منطقيًا. ومع ذلك، عادت إلى الرقم الذي أخذته من صاحبه واتصلت. أرادت أن تعرف السعر أولًا؛ كأن معرفة الرقم تجعل الحلم أقل غموضًا.

تحدثا عن السعر، ثم اتفقا على موعد بعد أربعة أيام لإتمام البيع. أغلقت الهاتف. ولحقت بها الحقيقة.

— وأنا فين عندي هاد الفلوس؟

◆

كان يمكنها أن تعاود الاتصال وتعتذر. لكن المحل صار، في رأسها، لها قبل أن يصبح لها في الأوراق. بدأت تستعرض أسماء من تعرفهم. قررت ألا تخبر أحدًا لماذا تحتاج المال. لا تريد نصائح، ولا من يقول لها إن الفكرة أكبر منها.

تريد قرضًا فقط، وسترده. ذهبت من شخص إلى آخر.

— محتاجة مبلغ.

— علاش؟

— عندي حاجة خاصني ندبرها.

مبلغ صغير هنا، وآخر أكبر هناك. في نهاية اليوم الأول لم يكفِ. وفي الثاني اقتربت. وفي الثالث بقي جزء يخيفها. ثم جاء اليوم الرابع. عدّت المال مرة. ثم مرة ثانية. المبلغ اكتمل.

لم تكن تعرف في تلك اللحظة هل تفرح أم تخاف. فالمال الذي جمعته لم يكن مالًا وجدته في صندوق، بل ثقة أشخاص ستظل مدينة لهم حتى تردها. وإذا فشلت، فلن يكون الخسارة خسارتها وحدها. لكن التراجع بعد أن قطع كل هؤلاء معها خطوة بدا أصعب من المضي.

◆

في اليوم الأول بعد أن سمعت سعر المحل، حاولت لبنى أن تحوّل المبلغ إلى أجزاء يمكن احتمالها. الرقم الكبير، إذا ظل رقمًا واحدًا، يغلق الباب قبل أن تبدأ. أما إذا توزع على أشخاص تعرفهم، فقد يصبح شيئًا يمكن جمعه. لم تكن تعرف إن كان الجميع سيوافقون، ولا كيف ستواجه من يرفض. كانت تعرف فقط أن موعد البيع لا ينتظر حتى تشعر هي بالشجاعة.

كانت تسأل عن قرض من دون أن تكشف تفاصيل المشروع. لم يكن ذلك استهانة بمن يساعدها، بل خوفًا من أن تتحول الفكرة إلى موضوع للنصح والاعتراض قبل أن تتخذ شكلًا. كانت تسمع الأسئلة، وتجيب بقدر ما يلزم، ثم تنتقل إلى اسم آخر. وكل مبلغ تحصل عليه يخفف جانبًا من العبء ويزيد جانبًا آخر: صار هناك من يثقون بأنها سترد المال، ولم يعد التراجع قرارًا يخصها وحدها.

في المساء، كانت تعود إلى الحساب. تفصل ما جمعته عما بقي، ثم تعيد الجمع خشية أن تكون قد أخطأت. كان يمكن لليأس أن يدخل من فجوة صغيرة بين رقمين، لكن الأيام الأربعة لم تترك لها وقتًا طويلًا للندم. كانت تستيقظ وهي تعرف ما الذي لم يكتمل بعد. وعندما جاء اليوم الثالث، لم يكن اقتراب المبلغ من الاكتمال كافيًا ليمنحها الراحة؛ الجزء الناقص، مهما صغر، كان قادرًا على إسقاط الصفقة كلها.

ثم اكتمل المال. لم يأتِ معه شعور مفاجئ بأنها أصبحت غنية. بالعكس، صار واضحًا كم هي مدينة للآخرين. لكن الفارق بين ما كانت عليه قبل أربعة أيام وما أصبحت عليه الآن كان كبيرًا: لم تعد تتحدث عن محل محتمل، بل عن موعد ستذهب إليه ومعها الثمن. لم يكن القرار خاليًا من المخاطرة، غير أنها قبلت المخاطرة وهي تعرف أن العمل، لا الحظ وحده، هو ما سيجعلها قادرة على رد الديون.

وعندما فتحت باب محلها بعد الشراء، ظهر امتحان لم تتوقف عنده بما يكفي: الجدران لا تبيع نفسها. تحتاج إلى ذهب يُعرض، وإلى زبائن يثقون، وإلى صبر على الأيام الأولى. هنا عاد صاحب المحل القديم إلى حياتها، لا بوصفه منقذًا يملك مستقبلها، بل رجلًا عرف كفاءتها وسمح لها أن تبدأ بالبضاعة. كانت تلك الثقة امتدادًا

لسنوات تعلمت فيها أن الأمانة لا تظهـر في الكـلام، بـل في التفاصيل الصغيرة التي يلاحظها الآخرون حتى حين لا نعرف أنهم يراقبون.

بعد الشراء بدأت الأيام الأصعب، لأنها لم تعد تستطيع أن تلقي مسؤولية القرار على أحد. حين يفتح المحل أبوابه ولا يدخل زبون، لا يوجد صاحب عمل أكبر منها يطمئنها إلى أن الغد أفضل. وحين تُباع قطعة، لا تستطيع أن تنفق ثمنها كما لو كان ربحًا خالصًا؛ عليها أن تفصل ثمن البضاعة عما تحتاجه لشراء غيرها، وأن تتذكر أسماء من أقرضوها المال. كانت تكتب وتراجع، وتخشى أن تختلط عليها حسابات البيت بحسابات المحل. لقد عرفت من أزمة عادل القديمة أن النجاح الظاهر قد يخفي ديونًا لا يراها أحد.

لم تكن الواجهة الممتلئة تعني أن حياتها صارت سهلة. فهناك ساعات تقف فيها خلف الزجاج وتفكر في موعد السداد المقبل، ثم يدخل زبون فتضطر إلى استقبال وجه جديد بابتسامة لا تحمل إليه قلقها. تعلمت أن تتحدث عن القطعة بثقة من غير مبالغة، وأن تترك للمشتري وقته، وأن تعترف بما لا تعرفه بدل أن تدعي معرفة قد تخسر بسببها سمعتها. كان العمل اليومي يختبرها في أمور لا تظهر في صورة المحل من الخارج.

وفي المساء، حين تغلق الباب، كانت تعود إلى البيت ابنة وأختًا كما كانت. لا يخفف امتلاك المحل من حاجة الأسرة إليها، لكنه يغير موقعها في القرار. لم تعد تنتظر أجرًا يحدده آخر في نهاية الشهر؛ أصبحت مسؤولة عن صنع الدخل نفسه. وقد جعلها ذلك أكثر حذرًا وأشد اعتزازًا بما تحقق. كل دين تسدده لم يكن رقمًا يُشطب فقط، بل خطوة نحو أن يصبح المفتاح الذي تحمله مفتاحًا لمكانها فعلًا، لا مكانًا اشتراه الآخرون لها على سبيل الثقة.

ذهبت إلى الموعد واشترت المحل. وعندما دخلته بعد أن صار لها، وقفت للحظات تنظر إلى الجدران. في المرة الأولى كانت امرأة أمام محل للبيع. الآن هي صاحبته. لكن الفكرة التالية جاءت بسرعة: المحل فارغ. اشترت الجدران، ولم يبقَ معها تقريبًا ما تملأ به واجهة محل ذهب.

◆

عـاد إلى حياتهـا الرجـل الـذي بـدأت عنـده. صـاحب محـل المجوهرات الذي رآها منذ الرابعة عشرة، من تنظيف الأرض إلى المكتب. عرف أنها اشترت محلًا. ولم يقف في طريقها. ساعدها بالذهب والبضاعة التي تستطيع أن تبدأ بها.

رتبت لبنى القطع خلف الزجاج. ومرت في رأسها صورة فتاة تمسح واجهة محل رجل آخر. هذه المرة كانت على الجانب الآخر من الزجاج. فتحت الباب. وبدأ العمل. كل قطعة تُباع لها أكثر من حساب: بضاعة جديدة، مصروف، ودين يجب أن يُرد.

وبدأت تعيد للناس أموالهم واحدًا بعد الآخر. بعد أربعة أيام من اتفاق بدا مستحيلًا، صار المفتاح في يدها. ولأول مرة لم يكن عليها أن تنتظر من أحد أن يقول لها:

— هاد المكتب ديالك.

لم تكن بحاجة إلى أن تقول شيئًا. كان المفتاح في يدها، والمحل أمامها، وما بقي من الطريق ستصنعه بالعمل.

لم تكن الأربعة أيام حلًا لكل شيء. لكنها كانت كافية لتجعل لبنى ترى بابًا تستطيع أن تمر منه وحدها.

الفصل 11

خاصك تطلبني من بابا

صار للمحل إيقاعه الخاص. تفتح لبنى الباب في الصباح، ترتب الذهب، تراجع الحسابات، وتغلق في المساء وهي تعرف أن الشيء الذي بدأ بديون مجمعة في أربعة أيام صار يثبت نفسه. وفي وسط هذه الحياة ظهر رجل. طيار مدني مغربي.

كان جادًا، ومع الوقت أصبح واضحًا أنه يريد الزواج.

◆

لم تكن لبنى فتاة تنتظر الزواج حتى تبدأ حياتها. حياتها بدأت بالفعل. عندها عملها، ومحلها، ومسؤوليتها. وحين وصل الكلام إلى الخطبة، قالت له شرطها:

— خاصك تطلبني من بابا.

نظر إليها.

— باباك فليبيريا.

— عارفة.

— وإيوا؟

— نمشيو عندو.

قالتها كما لو كانت تقترح رحلة عادية، لكن الكلمة خرجت من مكان أعمق من حسابات الزواج. لقد طلبت من غرباء سنوات طويلة أن يخبروها عن أبيها. والآن، حين أصبح أمامها سبب واضح للسفر، أرادت أن تراه بنفسها؛ لا ليمنحها إذنًا بحياتها، بل ليكون حاضرًا، ولو مرة، في قرار يخصها.

◆

لم يكن الشرط كله متعلقًا بالزواج. في داخله طفلة انتظرت أباها سنوات، ثم ذهبت إلى رجل قادم من ليبيريا تبحث عن خبر عنه، ثم صار أخوها هناك معه. والآن صار بإمكانها أن تصل إليه بنفسها. كلما اقترب السفر، بدأت الأسئلة تتحرك داخلها.

هل تعاتبه؟ هل تسأله عن الرسائل؟ أم تختفي كل الأسئلة حين يصبح أمامها؟

◆

لم يكن شرط لبنى على الطيار مجرد إجراء عائلي. كانت تستطيع أن تمضي في الخطبة وتترك أمر أبيها للرسائل والاتصالات، لكنها لم ترد أن تبدأ حياة جديدة من دون أن ترى الرجل الذي غاب عن بدايات كثيرة في حياتها. لم تكن تطلب إذنًا يقرر مصيرها؛ فقد اتخذت قرارات أصعب وحدها. كانت تريد أن يكون أبوها حاضرًا في لحظة لا تستطيع السنوات الماضية أن تعيدها.

كلما اقترب موعد الرحلة، صار اسم ليبيريا يحمل معنى مختلفًا. في طفولتها كان مكانًا يبتلع الأخبار. ثم صار مكانًا يصل منه صلاح بروايات عن حياة عادل. والآن ستذهب إليه بنفسها. حاولت أن تتخيل وجه أبيها حين يراها، فلم تعرف بأي عمر تراه في خيالها: الرجل الذي تركته عند المدرسة، أم الرجل الذي صار شعره يحمل أثر السنوات؟ كانت تعرف أن الصور القديمة لا تكبر مع أصحابها، وأن اللقاء سيجبرها على الاعتراف بهذه المسافة.

لم تكن تريد أن يصل عتابها قبل سلامها. لكنها لم تستطع أيضًا أن تقنع نفسها بأن العناق، إن حدث، سيكفي ليشرح كل شيء. كان في ذاكرتها بيت الجدة، وحليب منير، وملابس المدرسة التي خُلعت في صباح لم ينسه جسدها. وكانت في يدها الآن مفاتيح محل تملكه. بين الصورتين مسافة صنعتها من غير مساعدة الأب، ومع ذلك ظل في داخلها مكان لا يشغله أحد سواه.

أما الرجل الذي رافقها فكان ذاهبًا إلى لقاء والد المرأة التي يريد الزواج بها. لم يكن يستطيع أن يعرف مقدار ما تحمله هذه الرحلة من تاريخ سابق عليه. وكان ذلك وحده كافيًا لأن يجعل الحديث عن المستقبل يتأخر في ذهن لبنى كلما اقتربت من الوصول. فقبل أن تعرف هل سيكتمل الزواج، كانت تحتاج إلى أن ترى عادل، وأن تختبر السؤال الذي ظل معلقًا: ماذا يحدث للحب حين يصير صاحبه غريبًا في تفاصيل حياتنا؟

رتبت أمور المحل قبل الرحلة. لم تكن من النوع الذي يترك ما بناه خلفه ثم يفكر فيه بعد ذلك. أما أم كلثوم، فكانت تعرف أن

ابنتها ذاهبة إلى الرجل الذي أخذت جوازه يومًا حتى تمنعه من الرحيل. لكن لبنى لم تعد طفلة يمكن لأحد أن يمنعها من الوصول إلى أبيها.

جاء يوم السفر. تركت المحل خلفها وحملت حقيبتها. لم تكن تعرف إن كان الطيار سيصبح زوجها. لكنها تعرف أن هذه المرة لن تسأل أحدًا:

— واش شفتي بابا؟

هذه المرة ستراه هي.

الفصل 12

بين الحب والعتاب

طوال الرحلة، كانت لبنى تعرف إلى أين تذهب، ولا تعرف ماذا سيحدث عندما تصل. ليبيريا ظلت في طفولتها اسـمًا مرتبطًـا بالغياب. الآن أصبحت مكانًا حقيقيًا تحت قدميها. كان معها الرجل الذي يريد الزواج بها، لكن كلما اقترب لقاء عادل صار موضوع الزواج أصغر في رأسها.

◆

حين رأته، توقفت السنوات للحظة. هذا هو عادل. لـم يعـد الصورة التي حفظتها، وهي أيضًا لم تعد الطفلة التي تركها. وقفت أمامه والأسئلة التي أعدتها سنوات لا تعرف أيها يخرج أولًا. كيف تبدأ؟

بعتاب؟ بعناق؟ أم بكلمة واحدة؟

— بابا.

كانت كلمة واحدة، لكنها لم تشبه الكلمات التي تتبادلها الأسر كل يوم. حملت معها طفلة تجلس إلى جوار أبيها في السيارة، وفتاة خرجت من المدرسة إلى العمل، وامرأة وصلت إلى الرجل الذي ظل اسمه يقطع كل تلك المسافة بين المغرب وليبيريا. لم تكن تعرف أي صورة منه ينبغي أن تعانق أولًا.

◆

رأت حياته هناك. لم تجد ثروة أسطورية، ولا رجلًا حول كل ما لمسه إلى ذهب. وجدت رجلًا أمضى سنوات يحاول، ويطارد حلمًا ظل أكبر قليلًا مما وصل إليه. فهمت أن عادل لم يعش كل تلك السنوات في انتصار، لكنه أيضًا لم يستطع أن يترك الحلم.

وكان هذا يجعل الحكم عليه أصعب، لا أسهل. كانت تعرف من صلاح أنه يسأل عنهم ويشتاق إليهم ويبكي أحيانًا. الحب لم يمنع الضرر. والضرر لم يمحُ الحب.

◆

ثم جاء السبب المعلن للزيارة. جلس الطيار أمام عادل وطلب يد ابنته. وللحظة، عاد عادل إلى دور غاب عنه طويلًا؛ دور الأب الذي يأتيه رجل يطلب الزواج من ابنته. كان غائبًا حين تركت لبنى المدرسة، وحين بدأت العمل، وحين دخلت عالم الذهب، وحين اشترت محلها. أما الآن، فكانت تجلس أمامه امرأة شقّت طريقها بنفسها، لا تلك الطفلة التي كانت تنتظر عودته.

لم تكن لبنى تعرف ماذا تشعر وهي ترى أباها في هذا الموقف. كان جزء منها سعيدًا بأن يكون حاضرًا في أمر يخص مستقبلها، وجزء آخر يتذكر كل المناسبات والقرارات التي مرّت من دونه. لم تُرِد أن تُفسد اللحظة باستعادة ما فات، لكنها لم تستطع أيضًا أن تتصرف وكأن غيابه لم يترك أثرًا.

◆

لم يكن لقاء عادل سهلًا كما قد يبدو لمن يسمع أن ابنة زارت أباها بعد سنوات طويلة. كان أمامها رجل تعرف ملامحه القديمة وصوته، لكنها لا تعرف تفاصيل أيامه ولا عاداته التي اكتسبها بعيدًا عنها. وكانت أمامه ابنة تركها صغيرة، فإذا بها امرأة تسافر وتعمل وتدير شؤونها بنفسها.

في اللقاءات العائلية المعتادة، تساعد الذكريات المشتركة على ملء لحظات الصمت. أما بينهما، فقد كانت هناك سنوات كاملة لا يعرف أحدهما كيف عاشها الآخر. كانت تراقب يديه حين يتحدث، وتحاول أن تصل بين حركاته الآن وبين صورة يديه في الصالون القديم. تتعرف إلى شيء بقي كما هو، ثم تكتشف أشياء تغيّرت من غير أن تشهد تغيّرها.

وأحيانًا، كانت تتمنى لو تستطيع الجلوس إلى جواره كما كانت تفعل في طفولتها، من دون أن تضطر إلى التفكير فيما ستقوله. لكنها لم تعد تلك الطفلة، ولم يعد هو الأب الذي كانت تعرفه قبل الرحيل.

◆

لم تسأله لبنى عن كل شيء. بعض الأسئلة لم يكن مناسبًا أن يُطرح أمام الرجل الذي جاء يطلب الزواج منها، وبعضها كان أكبر من أن تتسع له زيارة قصيرة.

كانت تتذكر ما عرفته وهي في الرابعة عشرة عـن حكايـة الرسائل، وما تركته تلك السنوات في نفسها من حيرة. أرادت أحيانًا أن تسأله لماذا طال الغياب، وكيف استطاع أن يواصل حياته بعيدًا عن أسرته كل ذلك الوقت. لكنها كانت تخشى أن يتحول السؤال إلى خصام يبتلع اللقاء الذي انتظرته سنوات.

لم يكن صمتها نسيانًا ولا قبولًا بكل ما حدث. لقد اختارت أن تؤجل العتاب، لأنها لم تُرِد أن يكون أول لقاء حقيقي بينهما بداية ابتعاد جديد.

وكانت تعرف أن الشوق لا يكفي وحده لتفسير البقاء بعيدًا. كيف يحب الرجل أسرته ويشتاق إليها، ثم يتركها تواجه الحياة من دونه؟ وكيف يواصل مطاردة حلم يعرف أن ثمنه لم يدفعه وحده؟

لم تجد جوابًا. ولم تكن سنوات تعب عادل كافية لتمحو ما سببه غيابه من ألم. كانت تحبه، وكان في نفسها عتاب لم ينتهِ؛ ولم تشعر بأنها مضطرة إلى الاختيار بين الأمرين.

◆

وخلال الزيارة، كانت تنظر إلى المكان الذي يعمل فيه، وتحاول أن تفهم ما الذي أبقاه متعلقًا بليبيريا كل تلك السنوات. لعل حلم الثراء طال حتى صار عادة، ولعل العودة بعد كل ذلك الانتظار بدت له اعترافًا بخيبة لم يعرف كيف يواجهها. لكنها لم تكن تستطيع أن تعرف ما في نفسه من دون أن تسأله.

لم تسأله إن كان نادمًا. كانت تخشى أن تسمع جوابًا لا تستطيع تصديقه، أو أن تضعه أمام سؤال لا يريد أن يجيب عنه. واكتفت بأن تراه كما أصبح، لا كما ظلت تتخيله طوال سنوات الغياب.

وبقيت في ذاكرتها الكلمة التي قالتها عند اللقاء: «بابا». لم تكن هذه المرة نداءً يخرج في بيت خالٍ من صاحبه، ولا اسمًا تتوسل به خبزًا من مسافر. صار لها وجه تنظر إليه، وصوت يجيبها، ويدان تستطيع أن تتذكر حركتهما. لم يكن ذلك تعويضًا عن السنوات التي غابها، لكنه كان شيئًا حقيقيًا لم تعد مضطرة إلى تخيله.

◆

انتهت الزيارة، وعادت لبنى إلى المغرب. أما الخطبة فلم تتحول إلى زواج، وانتهت قصتها مع الطيار.

عادت إلى محلها وعملها ومسؤولياتها، لكن الرحلة بقيت في ذاكرتها لأسباب لم تكن تتعلق بالزواج. كانت تتذكر طريقته في النظر إليها، وصوته حين خاطبها، وملامحه التي حملت آثار السنوات. وأحيانًا، كانت تستعيد لحظات الصمت بينهما، وتتساءل إن كان قد شعر هو أيضًا بصعوبة تلك المسافة التي لم يستطع اللقاء القصير أن يمحوها.

لم تعد ليبيريا بالنسبة إليها مجرد اسم ارتبط بغياب أبيها، بل مكانًا رأته وعرفت فيه جانبًا من حياته. ولم يعد عادل صورة قديمة تنتظر عودتها، وإنما إنسانًا رأته بعينيها، بكل ما فيه من محبة وتناقض وضعف وإصرار.

لم تعد إلى المغرب وقد زال عتابها، ولم تحمل معها وعدًا بأن يعود قريبًا. لكنها عادت وهي تعرف أن لقاءه لم يكن نهاية الأسئلة، بل بداية معرفة مختلفة بأبيها.

الفصل 13

حظر التجوال

لم يستمر وجود صلاح إلى جوار عادل في ليبيريا بالطريقة نفسها إلى الأبد. القرب الذي بدأ كفرصة عمل كشف الخلافات أيضًا. صلاح كبر وصار له رأيه، وعادل اعتاد أن يعيش بالطريقة التي يراها هو صحيحة. بدأ الاحتكاك بينهما.

◆

من خلال صالون عادل، عرف صلاح بعض معارف أبيه المرتبطين بالسفارة الأمريكية. تحدث معهم سرًا عن الهجرة إلى الولايات المتحدة. وكان طلبه واضحًا:

— ما تقولوش لبابا حتى نمشي.

بدأت الإجراءات بعيدًا عن عادل. حتى جاء اليوم الذي غادر فيه صلاح ليبيريا إلى أمريكا من دون أن يخبره مسبقًا.

◆

بالنسبة إلى عادل، كانت صدمة. ابنه الذي يعيش معه ويساعده اختفى من يومه فجأة. ثم عرف من أصدقائه في السفارة أن صلاح هو الذي رتب الأمر معهم وطلب منهم الصمت. للحظة وجد عادل نفسه في الجانب الآخر من الغياب.

لا يجعل التشابه بين الرحلتين الدوافع متطابقة، لكنه يضع عادل أمام شعور كان يعرفه أولاده أكثر مما عرفه هو: أن يحدث قرار كبير في حياة من تحب من دون أن يُتاح لك أن تشارك فيه. لم يكن في وسعه أن يعيد الزمن ليخبر أسرته بما كان ينبغي أن يقوله يوم رحل.

شخص يحبه قرر أن يسافر وراء فرصة وترك له الخبر بعد أن أصبح بعيدًا.

◆

بدأ صلاح حياته في أمريكا. ثم جاءت، في أبريل 1980، أخبار الانقلاب العسكري والاضطرابات في ليبيريا. مهما كان الخلاف بينه وبين أبيه، لم يستطع أن يسمع أن عادل في خطر ويبقى بعيدًا. عاد. وفوجئ أن لبنى، من المغرب، فعلت الشيء نفسه. هي أيضًا سمعت بالأحداث وجاءت تبحث عن أبيها.

◆

لم يجداه في المكان الذي توقعاه. سألا حتى عرفا أنه عند المناجم. ذهبا إليه. رفع عادل عينيه، رأى صلاح، ثم رأى لبنى. تغير وجهه.

— آش جابك؟

قالت ببساطة:

— خفت عليك.

نظر إليها لحظة، ثم التفت إلى صلاح.

— خاصها تمشي. ديها للمطار.

◆

خرجا فورًا. لم يكونا يعرفان أن حظر التجوال قد بدأ. الطريق الذي بدا في البداية مجرد طريق إلى المطار تحول إلى خطر مفتوح. أوقفتهم مجموعة مسلحة. سألوهما لماذا هما في الخارج. قال صلاح إن أخته يجب أن تصل إلى المطار.

الكلام لم يكن كافيًا. بدأ التوتر يرتفع. أخرج صلاح المال الذي معه. أعطاهم تقريبًا كل ما يحمل.

لم يكن المال في تلك اللحظة ثمن رحلة أو صفقة، بل وسيلة للخروج من موقف لا يمكن توقع نهايته. كانت لبنى، التي قطعت الطريق إلى ليبيريا لأنها خافت على أبيها، تجد نفسها الآن محتاجة إلى أن تنجو هي أيضًا. وبين الخوفين لم يبقَ متسع لأسئلة العتاب القديمة.

أخذوه وسمحوا لهما بالمرور.

لم تكن أخبار الحرب تصل إلى لبنى كخبر بعيد عن بلد لا يعنيها. هناك عادل، وهناك صلاح، وهناك سنوات من الغياب لم تُحسم بعد.

كانت تعرف أن الخطر لا يميز بين رجل يبحث عن الألماس وآخر يعمل في الصالون. لذلك لم تكتفِ بالقلق من المغرب. تحركت نحو ليبيريا، وفي الطريق كان خوفها على أبيها يسبق كل سؤال قديم عن سبب رحيله.

حين التقت صلاح، كان كلاهما يحمل الدافع نفسه بطريقته. لم تكن هذه أول مرة يجتمعان فيها حول عادل؛ فقد ساعدته لبنى من قبل على السفر إلى هناك. لكن الظرف مختلف الآن. لم يعودا يسألان إن كان الأب ناجحًا أو فقيرًا، بل إن كان سالمًا. كان عليهما أن يعرفا مكانه أولًا، ثم يقررا ماذا يفعلان. ولم يكن البحث عن رجل قرب المناجم في بلد مضطرب يشبه البحث عنه في صالون يعرف الناس عنوانه.

رأته لبنى أخيرًا. لم يطل اللقاء كما كانت تتمنى. جاء الأمر بالعودة إلى المطار سريعًا، وحمل معه إحساسًا قاسيًا: قطعت المسافة لتطمئن عليه، فإذا بها مضطرة إلى الرحيل قبل أن تملك وقتًا كافيًا لذلك. لكنها لم تجادل. كان الخطر أكبر من أن يصبح العتاب أولوية.

في الطريق إلى المطار، تبدلت دلالة الأشياء العادية. الطريق الذي يفترض أن يقود المسافرين إلى رحلة صار مكانًا يجب عبوره بحذر. الوقت لم يعد ساعة على معصم أحد، بل احتمالًا: هل يصلان قبل أن يُمنعا من الحركة؟ وعندما أوقفتهما المجموعة المسلحة، لم تكن لبنى تعرف ما الذي سيحدث بعد السؤال الأول. كان صلاح يتحدث، والرجال أمامه يملكون السلاح. أما هي فكانت ترى كيف يمكن لقرار اتخذته بدافع المحبة أن يضعها في خوف لم تتوقعه.

أخرج صلاح المال. لم يكن الأمر بطولة يريد أن يرويها بعد ذلك، بل تصرفًا للخروج من مأزق حقيقي. وحين سمحوا لهما بالمرور، لم تختفِ الرهبة فورًا. بقي الطريق إلى المطار يحتاج إلى أن يُقطع، وبقي كل تأخر ممكنًا. ولما دخلت لبنى أخيرًا، لم يكن خروجها من البلد يعني أن خوفها انتهى. لقد تركت أباها وأخاها وراءها، لكنها حملت معها يقينًا لم يعد يحتاج إلى إثبات: مهما اشتد عتابها، فإن الخطر الذي يهدد عادل سيجعلها تعود إليه.

كان حظر التجوال يعني أن المدينة التي تتحرك فيها السيارات نهارًا يمكن أن تتحول، بعد ساعة معينة، إلى مساحة لا يُسمح لأحد

بعبورها. لم تكن لبنى تعرف التوقيت الدقيق حين خرجت مع صلاح. كانت تفكر في الوصول إلى المطار قبل فوات الرحلة، ولم تكن تدرك أن الطريق نفسه قد يصبح عقبة أخطر من كل ما سبق. ولهذا كانت المفاجأة عند نقطة التوقيف مضاعفة: هناك رجال يحملون السلاح، وأسئلة لا تكفي الإجابة عنها وحدها كي يستمر الطريق.

لم يكن أمام صلاح متسع للغضب من الموقف أو لإلقاء اللوم على أحد. تصرف بما استطاع، ودفع المال، ثم انتظر أن يُسمح لهما بالمرور. لم يكن يعرف على وجه اليقين أن المال سيحل المشكلة، لكنه لم يجد وسيلة أخرى يملكها في تلك اللحظة. وكانت لبنى ترى أخاها يحاول أن يحميها، بعدما جاءت هي لتحاول الاطمئنان على أبيها. في أسرة طالما تفرقت بين البلدان، صار النجاة من الطريق إلى المطار أهم من كل خلاف قديم.

حين وصلت أخيرًا إلى مكان تستطيع فيه متابعة السفر، لم يكن الخوف قد خرج من جسدها. لكنها لم تتراجع عن سبب مجيئها. كانت قد رأت عادل وتأكدت أنه حي، ورأت صلاح يتصرف في لحظة خطر. أما ما بقي وراءها من قلق فلا يستطيع المطار أن يمحوه. كل رحلة إلى ليبيريا كانت تمنحها خبرًا جديدًا عن أبيها، ثم تترك معها سؤالًا آخر؛ وهذه الرحلة تركت معها سؤال السلامة قبل أي شيء.

◆

وصل بها إلى المطار. قالت له:

— رد بالك على راسك.

ثم دخلت. هذه المرة هي التي غادرت ليبيريا، وبقي عادل وصلاح خلفها. حملت معها صورة جديدة للبلد: الأب عند المناجم، الأخ يدفع ما معه لمسلحين، وطريق إلى المطار لا يعرفان أنه محكوم بحظر تجوال. وفي داخلها بقيت حقيقة واحدة: مهما غضبت من عادل، يكفي أن تسمع أنه في خطر كي تتحرك نحوه.

الفصل 14

اقفلي المحل

عادت لبنى من ليبيريا إلى المغرب، وإلى محلها. المحل الذي اشترته بمال جمعته في أربعة أيام صار له زبائنه واسمه وإيقاعه. تشتري، تبيع، تحسب، وتقرر. وإذا أخطأت تتحمل خطأها، وإذا نجحت تعرف أن النجاح لها.

ثم دخل رجل جديد إلى حياتها. مغربي يعمل في منصب إداري كبير في شركة عالمية في الشرق الأوسط. صار الكلام جديًا، ثم وصل إلى الزواج.

◆

كانت لبنى تدخل الزواج ومعها حياة صنعتها بالفعل. لكن الرجل كانت لديه صورة أخرى. قال لها إن الزواج يعني أن تتوقف عن العمل. أن تغلق المحل.

لم يسمع الزوج في طلبه سوى ترتيب لحياة يريدها، لكنها سمعت فيه بابًا آخر يُغلق. كانت قد انتقلت من تنظيف واجهات الآخرين إلى امتلاك واجهتها، وعرفت ثمن الاستقلال قبل أن تعرف اسمه. ولذلك لم يكن الخلاف على ساعات العمل، بل على الحق في الاحتفاظ بشيء صنعته بيديها.

ثلاث كلمات فقط:

— اقفلي المحل.

لكن وراءها سنوات كاملة.

◆

تحدثا واختلفا. عاد الشرط. وسألت نفسها أكثر من مرة:

— علاش خاصني نختار؟

لكن أمامها كان تصور آخر للمستقبل: زوج، بيت، أسرة، حياة جديدة. وفي النهاية اختارت الزواج.

◆

كان محل لبنى أكثر من عنوان تجاري. وراء واجهته تعلّمت أن تراجع حساباتها بنفسها، وأن تتخذ قرارًا وتتحمل نتيجته، وأن تنظر إلى الزبون من غير أن تشعر بأنها أصغر من المكان. لهذا بدا طلب إغلاقه مختلفًا عن طلب يمكن التفاوض حول تفاصيله. لم يكن زوجها المرتقب يطلب منها تغيير مواعيد العمل أو الاستعانة بمن يساعدها، بل أن تتوقف عن ممارسة المهنة التي صنعت لها موقعًا في العالم.

ومع ذلك لم يكن قرارها بسيطًا. كانت ترى أمامها فرصة لتأسيس أسرة، وربما أرادت أن تمنح نفسها حياة لا تبدأ كل صباح بالحسابات. لقد قضت طفولتها ومراهقتها تحمل ما لا يناسب عمرها. أليس من حقها أن تتصور يومًا تكون فيه مسؤولياتها مختلفة؟ كان السؤال مشروعًا، ولذلك لم يكن إغلاق المحل نتيجة ضعف مفاجئ في شخصيتها، بل قرارًا اتخذته وهي توازن بين رغبتين لا تعرف كيف تجمعهما في ذلك الوقت.

كانت تعرف ما ستخسره. تعرف كيف حصلت على أول قرض، وكيف اكتمل المال في اليوم الرابع، وكيف جاءت البضاعة من صاحب المحل القديم، وكيف ردت الديون. لم يكن أي من ذلك تفصيلًا صغيرًا. لهذا، حين اقترب موعد الإغلاق، لم تحتج إلى من يشرح لها معنى أن تتنازل عن مكان عملها. كانت تعرفه بدقة، وربما كان هذا الوعي نفسه ما جعلها تمضي وهي تحاول أن تقنع نفسها بأن التضحية مؤقتة أو قابلة للتعويض.

في اليوم الأخير، لم تتوقف الحياة خارج الواجهة لتشاركها القرار. بقي الناس يمرون، وبقيت المحلات المجاورة تفتح أبوابها. أما هي فكانت تجمع أشياءها وتغلق حسابات مرحلة كاملة. لم يكن هناك احتفال بانتهاء العمل، ولا خطاب تعلن فيه أنها تبدأ حياة أخرى. كان هناك مفتاح وواجهة وأضواء تُطفأ، وامرأة تعرف أن ما صنعته بيديها لن يعود إليها تلقائيًا إذا احتاجت إليه مرة أخرى.

ولذلك ظل صوت القفل في ذاكرتها. ليس لأنه أعلى من أصوات المدينة، بل لأنه فصل بين حياتين: واحدة كانت تستطيع فيها أن تقول «هذا محلي»، وأخرى ستكتشف بالتدريج مقدار ما تستطيع الاحتفاظ به من نفسها وهي تحاول أن تكون زوجة وأمًا.

جاء اليوم الأخير في المحل. دخلت في الصباح وفتحت الباب كما فعلت مئات المرات. المفتاح نفسه. الواجهة نفسها. لكن كل شيء صار يحمل كلمة: الأخير. اقتربت من إحدى القطع وعدلت مكانها تلقائيًا، ثم توقفت. غدًا لن تكون هنا.

◆

في آخر النهار وقفت أمام الزجاج. رأت انعكاسها، ومرت في رأسها صورة البنت التي دخلت محل الذهب أول مرة بملابس موف ومكياج مستعار وكعب يحاول أن يكبرها. ثم البنت نفسها وهي تمسح زجاج محل رجل آخر. استغرقت سنوات حتى تعبر إلى الجهة الأخرى.

والآن تستعد للخروج منها بإرادتها.

◆

أطفأت الأنوار واحدًا بعد الآخر. خرجت. أدخلت المفتاح في الباب. ترددت يدها لحظة. ثم أدارت القفل. طق. صوت صغير جدًا لنهاية شيء كبير. بقي المفتاح في يدها قبل أن تضعه في حقيبتها. لم تبكِ. كانت تقنع نفسها أنها لا تهدم ما بنته، بل تختار بداية أخرى.

في تلك اللحظة، لم يكن إغلاق المحل خسارة تجارة فقط؛ كان خسارة المكان الذي صنعت فيه لنفسها اسمًا.

الفصل 15

من المغرب إلى القاهرة

القاهرة لم تكن سيئة مع لبنى. في المعادي صنعت لنفسها حياة. بيت، ثلاثة أطفال، مدارس، نادي، وأصدقاء. وكان زوجها المغربي يشغل منصب مدير إقليمي لشركة عالمية في مصر، كثير السفر، واسع العلاقات، يعرف رجال أعمال وشخصيات من دوائر مختلفة.

من الخارج، بدت الحياة مرتبة.

كانت القاهرة تمنحها تفاصيل يومية يمكن أن تتعلق بها: طريق الأطفال إلى مدارسهم، الوجوه التي اعتادت رؤيتها، والبيوت التي تزورها وتستقبل أصحابها. ولم تكن هذه الحياة زائفة لمجرد أن زواجها أخذ يختل. لقد أحبت أشياء حقيقية فيها، وهذا ما جعل قرار مغادرتها، حين جاء، أصعب مما يبدو لمن يسمع الحكاية من نهايتها.

◆

لكن الزوج كان كثير الغياب. العمل يفسر بعضه، لا كله. ومع الوقت عرفت لبنى أن في حياته نساء أخريات. لم تجعل يومها يدور حول غيابه. كان عندها الأطفال. مدارسهم، واجباتهم، مواعيدهم، وكل التفاصيل التي أرادت أن تكون حاضرة فيها لأنها تعرف ماذا يفعل الغياب بالطفل.

◆

بعد أن يذهب الأطفال إلى مدارسهم، تبدأ مساحة أخرى من يومها. المعادي. النادي. الصداقات. ومع الوقت دخل إلى دائرتها مغاربة يعيشون في القاهرة، من بينهم وجوه وفنانون من الوسط الفني المغربي المقيم في مصر.

في تلك الجلسات لم تكن «مدام المدير الإقليمي». كانت لبنى. قالت لها صديقة مرة:

— راه القاهرة شدّاتك.

ضحكت:

— شدّاتني غير شوية. المغرب كيبقى هو المغرب.

— ولكن المعادي عجباتك.

نظرت حولها وقالت:

— هنا كاين النفس.

◆

البيت، في المقابل، صار أقل اتساعًا. زوجها يحب السيطرة. له رأي في أين تذهب، ومع من تجلس، ومن ينبغي أن تعرف. قال لها مرة:

— ما عجباتنيش هاد الصحبة ديالك.

— علاش؟

— ما ارتحتش ليها.

— نتا ماشي اللي كتجلس معاها، أنا اللي كنجلس معاها.

— أنا راجلك.

قالت:

— عارفة. ولكن ماشي كل حاجة فحياتي خاصك تختارها نتا.

◆

في المعادي، لم تكن لبنى تعيش في انتظار زوجها فقط. كانت أيام الأطفال تمنحها نظامًا واضحًا: مدارس، وواجبات، ومواعيد، وأشياء صغيرة تحتاج إلى أن تكون الأم حاضرة فيها. ربما كان ذلك ما جعلها أكثر إصرارًا على ألا يشعر أبناؤها بما شعرت به هي يوم اختفى عادل من يومها. كانت تعرف أن الطفل لا يطلب من والديه حياة كاملة؛ يطلب أن يجد من يعرف موعد عودته، ومن يسمع ما حدث له، ومن يكون حاضرًا حين يحتاج إلى سؤال.

لم يكن كل ما عاشته في القاهرة حزينًا. هناك صداقات حقيقية، وأماكن أحبتها، وأيام ضحكت فيها من قلبها. لم تكن المدينة مجرد خلفية لزواج أخذ يتصدع. كانت مكانًا نشأ فيه أبناؤها، وعرفوا شوارعهم ومدارسهم، وصار لهم فيه أصدقاء. ولهذا فإن قرار الرحيل، حين بدأ يقترب، لم يكن انتقالًا من بيت إلى آخر فحسب؛ كان اقتلاعًا لروتين كامل اعتاد عليه ثلاثة أطفال.

كان غياب الزوج يتسع، ومعه تتسع المسافة بين ما يقال في البيت وما يحدث خارجه. لا يكفي أن يسافر رجل كثيرًا بحكم عمله كي تشك زوجته في كل رحلة، لكن الشك يتغير حين تبدأ تفاصيل متفرقة في الالتقاء: اسم يتكرر، واهتمام يتجاوز حدود الوظيفة، ومحاولات للسيطرة على حياة الزوجة مع بقاء حياة الزوج الخاصة خارج السؤال. لم تكن لبنى تريد أن تحوّل يومها إلى مراقبة، لكنها لم تستطع أيضًا أن تتجاهل ما صار واضحًا.

حين واجهته، لم تكن تطلب منه أن يشرح لها طبيعة عمل سكرتيرته. كانت تسأل عن حدود دخلت منها امرأة أخرى إلى الحياة الزوجية. وكان الرد الذي تسمعه يعيدها إلى السؤال نفسه. لا تُصلح الثقة كلمات عامة إذا ظلت الوقائع تسير في اتجاه آخر. ومع ذلك لم تتخذ قرارها في اللحظة الأولى. كانت تحسب أثر كل خطوة على أطفالها، وتبحث عن طريقة تمنع الخلاف بين الكبار من أن يصبح خوفًا دائمًا للصغار.

لقد تعلمت لبنى من طفولتها أن البيت يمكن أن يبدو قائمًا بينما تتصدع أركانه. وهذه المرة لم ترد أن تنتظر حتى ينهار كل شيء لتبدأ التفكير في الخروج. كانت تستعد نفسيًا لقرار لا تزال لا تعرف موعده، لكن الشعور بأن عليها حماية ما بقي من حياتها صار أقوى من الرغبة في إقناع نفسها بأن الأمور ستعود كما كانت.

ومع زيادة الغياب، بدأ اسم سكرتيرته يتكرر أكثر من اللازم. في البداية كان اسمًا طبيعيًا: مكتب، مواعيد، سفر. ثم بدأ يظهر خارج العمل. واجهته لبنى:

— هاد السكرتيرة ديالك داخلة فحياتك بزاف.

— خدمتها معايا، طبيعي.

قالت:

— الطبيعي كيبان طبيعي.

لم تكن غافلة، لكنها كانت أمًا لثلاثة أطفال، والبيت لم يكن قرارًا يُهدم في لحظة غضب. واصلت قياس ما حولها. الأطفال. المدارس. الاستقرار. ونفسها. أما هو فواصل الابتعاد، حتى لم تعد السكرتيرة مجرد امرأة تدور حول البيت من الخارج.

الفصل 16

ما زال النور مضاءً

الحقيقة لم تحتج إلى تفسير طويل. زوج لبنى لم يعد على علاقة بسكرتيرته فقط. تزوجها. وصار له بيت آخر.

◆

واجهته لبنى. قالت:

— دابا تزوجتي؟

لم ينكر. بدأ يشرح، لكنها انتظرته حتى انتهى ثم قالت:

— إيوا سير.

— شنو؟

— سير لدارك الأخرى. ما غاديش تبقى هنا.

— لبنى، خلي نهضرو.

— ما بقى ما نهضرو فيه. نتا اخترتي. وأنا حتى أنا غادي نختار.

خرج من البيت.

◆

بقيت لبنى مع الأطفال. واستمرت المدرسة والواجبات والحياة اليومية. لكن زوجها، رغم خروجه، ظل يعرف تفاصيل لا يفترض أن يعرفها. مكان ذهبت إليه، موعد، زيارة. الخادمة بقيت في البيت، والسائق بقي يتحرك معها.

وفهمت أن الأخبار تعبر من خلالهما.

كان أكثر ما يرهقها ألا تعرف متى تصبح تفاصيل يومها ملكًا لشخص غادر البيت لكنه لم يغادر الرغبة في السيطرة عليه. لم تعد المشكلة مجرد زواج آخر أو خلاف بين زوجين؛ صارت حاجتها إلى الخصوصية والأمان جزءًا من حسابات كل خطوة.

لم تحول الأمر إلى حرب. صار عندها هدف أكبر: الخروج من مصر.

◆

استعانت بأشخاص تثق بهم. رتبت بهدوء. الأطفال معها، وهذا غير قابل للنقاش. في يوم الرحيل، أخذت ما يحتاجونه فقط. سأل أحد الأطفال:

— ماما، غادي نسافرو؟

— آه.

— فين؟

— للمغرب.

— كاملين؟

نظرت إليه.

— آه. كاملين.

◆

قبل أن تغادر، تركت الأنوار مضاءة. نور الصالون، ونورًا في الداخل. ما يكفي ليبدو البيت مأهولًا. لو راقب أحد من الخارج سيظن أنهم ما زالوا هناك. كانت تحتاج إلى ساعات فقط. خرجت مع الأطفال.

لم تكن الرحلة انتصارًا سهلًا. كانت أمًا مسؤولة عن ثلاثة أطفال، تحمل قرارًا أكبر من الحقائب التي أخذتها. ما أرادته لم يكن محو السنوات التي عاشتها في القاهرة، بل منع السنوات القادمة من أن تُدار بالخوف نفسه.

حين عرفت لبنى بزواج زوجها من سكرتيرته، لم يعد الأمر يحتمل التأويل. لم تكن أمامها إشاعة تحتاج إلى التحقق أو تفسير يمكن أن يهدئها مؤقتًا. كان هناك زواج آخر وبيت آخر، ومع ذلك أراد الرجل أن يبقى له نفوذ في البيت الذي تعيش فيه مع الأطفال. عند هذه النقطة تغير معنى الخلاف. لم تعد المسألة أن تقنعه بما جرحها؛ صار عليها أن تحدد الحدود التي تستطيع العيش داخلها.

بعد خروجه من البيت، استمرت التفاصيل اليومية، لكن شيئًا من الطمأنينة غاب. كيف يعرف إلى أين ذهبت؟ ومن أخبره بموعد لم تتحدث عنه معه؟ كانت الإجابات التي تصلها من تصرفات المحيطين بها كافية لتجعلها أكثر حذرًا. لم تكن تريد أن تعيش في شك دائم، ولا أن تحوّل الأطفال إلى شهود على نزاع لا يخصهم. لذلك بدأت ترتب الخروج بصمت.

لم يكن السفر إلى المغرب مجرد شراء تذاكر. هناك بيت يجب أن يستقبل الأطفال، وحاجات لا يمكن حملها كلها، وأوراق ستظل مطلوبة بعد الوصول. كانت تراجع ما يحتاجه كل طفل، وتفكر في الطريق إلى المطار، وفي الوقت الذي تستطيع فيه المغادرة من دون أن تتعطل خطتها. ولم يكن عليها أن تقول للأطفال أكثر مما يستطيعون احتماله في تلك اللحظة. كان المطلوب أن يشعروا بأنها تعرف إلى أين تذهب بهم، حتى لو كانت هي نفسها تخشى ما قد يحدث.

تركت الأنوار مضاءة. في ظروف أخرى قد يكون نسيان الضوء تفصيلًا لا يلتفت إليه أحد، لكنه هنا صار جزءًا من قرار محسوب. لا تريد أن يلاحظ من يراقب البيت أنه خلا سريعًا. كانت تحتاج إلى ساعات تمر بسلام. وحين خرجت مع أطفالها، لم يكن أمامها وقت طويل لتتأمل الباب. كل ما فعلته بعد ذلك كان مرتبطًا بخطوة تالية: الوصول إلى السيارة، ثم المطار، ثم الطائرة.

وحين تحركت الطائرة، لم تشعر بأن كل شيء انتهى. ما زالت أمامها عودة إلى المغرب، وأطفال يحتاجون إلى مدارس، وحياة مهنية تركتها يومًا من أجل الزواج. لكن أهم ما حملته معها لم يكن حقيبة ولا ورقة؛ كان قرارًا ألا يضطر أولادها إلى دفع ثمن صراع الكبار بالطريقة التي دفعتها هي. كانت تعرف أن البداية الجديدة صعبة، لكنها فضلت صعوبتها على حياة لم تعد تملك فيها الاطمئنان.

لم يكن أصعب ما في الخروج من مصر أن تختار وجهة السفر؛ المغرب كان معروفًا، ولها فيه جذور تستطيع العودة إليها. الأصعب أن تتصرف في وقت محدود من غير أن يلاحظ الأطفال حجم الخطر الذي تخشاه. كانت تراجع الأشياء التي لا يمكن تركها: ما يثبت هوياتهم، وما يحتاجونه في الطريق، وما يكفيهم حتى يستقروا. كل غرض زائد يعني حقيبة أثقل، وكل غرض ناقص قد يتحول إلى

مشكلة بعد الوصول. لم تكن تملك ترف أن تنسى شيئًا مهمًا ثم تعود لتأخذه.

في تلك الساعات ظهر الفارق بين القرار والقدرة على تنفيذه. قد تقول امرأة لنفسها إنها ستغادر، ثم تكتشف أن الوصول إلى الباب يحتاج إلى ترتيب طويل. كانت لبنى قد عرفت هذا الفارق في عالم التجارة؛ تستطيع أن تتخيل محلًا يخصها، لكن عليها أن تجمع ثمنه قبل موعد البيع. وهنا كان عليها أن تحول رغبتها في الخروج إلى خطوات لا تلفت الانتباه: من يساعدها، ومتى تتحرك، وكيف تبقى حياة الأطفال مستقرة قدر الإمكان.

وحين تركت الضوء مضاءً، لم يكن الأمر حيلة بطولية، بل تفصيلًا من تفاصيل الخوف. لم ترد أن تترك وراءها علامة واضحة على الرحيل قبل أن تصبح بعيدة بما يكفي. كانت تتمنى ألا تحتاج إلى مثل هذا التدبير أصلًا. فالبيت الذي يفترض أن يحمي الإنسان لا ينبغي أن يخرج منه كما يخرج من مكان يخشى أن يُمنع من مغادرته. ومع ذلك فعلت ما رأت أنه يحميها وأطفالها، ثم مضت من غير أن تعرف هل ستسير كل الخطوات كما رتبت.

بعد الإقلاع، كان بوسعها أن تنظر إلى وجوه أطفالها بدل أن تنظر وراءها. لم تكن تعرف بعد كل ما ستحتاج إليه لإعادة بناء حياتهم، لكنهم كانوا معها. وهذا ما جعل الرحيل مختلفًا عن غياب عادل القديم: لم تتخذ قرارًا يترك الصغار ينتظرون؛ اتخذت قرارًا تصطحبهم فيه إلى مستقبل لا تزال هي نفسها تتعلم كيف تصنعه.

وساعدها من ساعدها حتى وصلت إلى المطار. كل دقيقة تمر كانت تقلل احتمال أن يعيدها أحد إلى البيت الذي تركته.

◆

حين تحركت الطائرة، كانت القاهرة تحتها. المعادي، المدارس، الأصدقاء، والسنوات. لم تكن تهرب من المدينة. كانت تخرج من حياة لم تعد تريدها. ونظرت إلى أطفالها الثلاثة. عادل خرج يومًا وترك أبناءه. أما هي فغادرت رجلًا، ولم تغادر أبناءها.

وفي القاهرة ظل نور البيت مضاءً لبعض الوقت، يمثل وجودًا لم يعد موجودًا.

الفصل 17

التهديد

حين وصلت لبنى إلى المغرب بأطفالها، لم تذهب إلى المجهول تمامًا. كانت قد أمّنت قبل مغادرتها مصر بيتًا لها ولأولادها. فتحت الباب، دخل الأطفال بحقائبهم، وامتلأت الغرف بالحركة. نجحت في أول شيء: وصلوا.

كانت قد أمنت البيت قبل أن تغادر مصر، لأن العودة من دون سقف معروف كانت ستجعل الأطفال يدفعون ثمن قرار لم يتخذوه. أما ما بقي من حياتهم فكان عليها أن تبنيه خطوة بعد خطوة، كما فعلت حين اشترت محلها الأول من غير أن تملك ثمنه كاملًا.

بقي السؤال الأصعب: كيف سيعيشون؟

◆

عادت إلى محلها. المكان موجود، لكن الواجهة فارغة. تملك محل ذهب ولا تملك الذهب. وصل خبر عودتها إلى صديقة تعمل في التجارة نفسها. جاءت، نظرت إلى الواجهات وقالت:

— باغية ترجعي تخدمي؟

— إييه.

— وعندك البضاعة؟

هزت لبنى رأسها.

— المحل عندي... ولكن ما عنديش راس المال.

قالت صديقتها:

— عطيني جوج أيام... ونعاونوك.

◆

بعد يومين عادت. لم تأتِ بثروة تهديها للبنى. جاءت ببداية يمكن أن تعيش. ذهب على سبيل الأمانة.

لم تكن هذه المساعدة تكرارًا حرفيًا لما جرى في بدايتها الأولى مع صاحب محل المجوهرات. هناك كانت تتعلم وتبدأ، وهنا كانت تعود إلى مهنة تعرفها بعد سنوات من الانقطاع، ومعها ثلاثة أطفال يحتاجون إلى استقرار. ما قدمته صديقتها لم يكن حلًا لكل شيء، بل فرصة كي تستعيد لبنى قدرتها على العمل.

تبيع لبنى، تربح، وتسدد لصديقتها حقها شيئًا فشيئًا. قالت لها:

— خدمي. بيعي وربحي، وسدي ليا بشوية بشوية.

سألتها لبنى:

— واثقة فيا؟

ابتسمت:

— كون ما كنتش واثقة فيك، ما كنتش جيت.

وبدأت الواجهة تمتلئ بالتدريج.

لم تكن العودة إلى المغرب رجوعًا بسيطًا إلى النقطة التي تركتها. لقد تغيرت لبنى، وتغيرت معها مسؤولياتها. يوم اشترت محلها الأول كانت تحسب ديونها وتفكر في قدرتها على ردها. الآن كان معها ثلاثة أطفال، وكانت أي خسارة في العمل ستصل آثارها إلى البيت فورًا. لم تعد تستطيع أن تخاطر بالطريقة نفسها، لكنها لم تفقد القدرة على البدء.

عندما وقفت أمام واجهة المحل الخالية، لم يكن أصعب ما في الأمر أن ترى الزجاج بلا ذهب. الأصعب أن تتذكر أنها تركته يومًا وهو يعمل، وأن السنوات التي قضتها بعيدًا لم تنتظرها كي تعود. الزبائن يتغيرون، والأسعار تتغير، والثقة تحتاج إلى أن تُستعاد. لم تكن تريد أن تقف طويلًا أمام ما فقدته. احتاجت إلى بضاعة أولًا، ثم إلى أن تعود إلى إيقاع المهنة الذي تعرفه.

جاءت صديقتها بالمساعدة. لم تكن بينهما ورقة تضمن كل شيء، بل معرفة سابقة وثقة في قدرة لبنى على العمل. وهذا النوع من الثقة قد يكون أثقل من قرض مصرفي؛ لأن الخسارة فيه لا تنقص المال وحده، بل تجرح علاقة بين شخصين. كانت لبنى تدرك ذلك، ولهذا تعاملت مع الذهب الذي وصلها على سبيل الأمانة باعتباره مسؤولية لا هدية. كل قطعة تبيعها تفتح لها بابًا صغيرًا نحو الاستقلال، وكل مبلغ تسدده يخفف عنها عبئًا قديمًا.

ثم ظهر ما لم تحسبه كاملًا يوم الرحيل: أوراق الأطفال في مدارس مصر. لم تكن تريد أن تترك مستقبلهم الدراسي معلّقًا بسبب خلافها مع أبيهم. عادت إلى القاهرة من غير أن تعلن له سفرها، وأقامت عند صديقة تثق بها. في يومين قصيرين تحركت بين المؤسسات، تبحث عن ملفات وتوقيعات وتواريخ. لم تكن الرحلة مناسبة للحنين إلى المعادي ولا لزيارة الأماكن التي أحبتها. كانت مهمة محددة، تنتهي حين تصبح الأوراق في يدها.

حين اتصلت بزوجها بعد عودتها وأخبرته أنها جاءت ومشت من غير أن يعلم، لم تكن تريد أن تستفزه بقدر ما أرادت أن تقول إن سيطرته على تفاصيل حياتها لم تعد أمرًا واقعًا. كان في العبارة شيء من استرداد صوتها: المرأة التي طُلب منها يومًا أن تغلق محلها استطاعت أن تفتح بابًا وتغلقه بنفسها، وأن تسافر وتعود، وأن تحمي مصالح أولادها من غير أن تستأذن من غادر البيت.

◆

بعد خروجها من مصر، اتصل زوجها غاضبًا.

— كيفاش خديتي الدراري ومشيتي؟

— هما معايا.

— حتى أنا باهم. ما عندكش الحق.

ثم بدأ يتحدث عن منصبه وعلاقاته وما يستطيع فعله. استمعت ثم قالت:

— دير اللي بغيتي.

وأغلقت الهاتف.

◆

بقيت مشكلة واحدة تربطها بمصر: أوراق مدارس الأطفال. لم تستطع إكمال ملفاتهم في المغرب من دونها. كان عليها أن تعود إلى القاهرة. هذه المرة لم تخبره. تواصلت مع صديقة مصرية تثق بها.

— تعالي عندي.

ذهبت لبنى وأقامت في بيت صديقتها. قالت:

— غير يومين ونرجع لولادي.

وفي يومين تحركت بين المدارس والمكاتب، جمعت الملفات والتوقيعات والمستندات، ثم عادت إلى المطار. دخلت مصر، نامت فيها ليلتين، وأنهت ما تريد وغادرت. زوجها لم يعرف.

◆

بعد عودتها إلى المغرب اتصلت به.

— بغيت نقول ليك واحد الحاجة.

— شنو؟

— كنت فمصر.

صمت.

— فاش؟

— قعدت جوج أيام. كمّلت وراق الدراري ورجعت.

— وجيتي لجوج أيام وما عرفتش؟

قالت بهدوء:

— جيت، خدمت اللي عندي، ومشيت... ونتا ما عرفتي والو.

الفصل 18

رجّعيني

لم تعد لبنى تعرف أخبار عادل من الناس. منذ سنوات صار بينهما الهاتف. تتصل به، يسأل عن الأولاد، وتسأله عن صحته.

— كيف داير آ بابا؟

— لاباس آ بنتي.

— ومتأكد لاباس؟

فيضحك:

— آش هاد التحقيق؟

فتقول:

— كنعرف صوتك.

◆

لم تكن لبنى تحاول أن تقرّب أباها منها وحدها. كان هناك منير، أصغر إخوتها؛ الطفل الذي اعتادت أن تحضر له الحليب، ولـو اضطرت إلى شرائه بالدَّين. كبر وهو يجدها إلى جواره، حتى صارت بالنسبة إليه أكثر من أخت كبرى، وصار في قلبها أقرب إلى ابن ترعاه.

كان منير يحكي أنه إذا بكى ذهب إلى لبنى، وإذا جاع بحث عنها، وإذا احتاج إلى مال أو ملابس قصدها. كانت أم كلثوم أمه، حاضرة في حياته، لكن لبنى منحته من الرعاية ما جعله يعتبرها أمًّا ثانية. لم تكن تلك تسمية عابرة؛ كانت خلاصة سنوات من العناية اليومية التي لم تنقطع حين كبر.

وفي عام 1990، حين بلغ منير السادسة والعشرين، أراد أن يرى عادل الذي غاب عنه منذ طفولته. كانت لبنى على اتصال بأبيها، تعرف أخباره وتطمئن عليه، لكنها أدركت أن المكالمات والحكايات لا تعوّض لقاء الابن بأبيه. اشترت لمنير تذكرة الطائرة ورتبت سفره إلى ليبيريا، حتى يراه بنفسه لأول مرة منذ أن كان طفلًا.

كانت فرحة عادل ومنير كبيرة حين التقيا. وجد الأب أمامه رجلًا بعدما تركه صغيرًا، ووجد الابن أخيرًا وجهًا وصوتًا للوالد الذي ظل يعرفه من أخبار الأسرة. لم يمحُ اللقاء سنوات الغياب، لكنه منحهما فرصة حقيقية ليجلس أحدهما إلى الآخر، لا أن يتخيل كلٌّ منهما حياة الآخر من بعيد.

أما لبنى، فلم تكن حاضرة في ليبيريا، لكنها كانت السبب في ذلك اللقاء. لم تستطع أن تعيد لمنير طفولته مع أبيـه، لكنهـا استطاعت أن تجمعهما. هكذا ظلت، كلما أمكنها، تحاول وصل ما فرّقته المسافات داخل أسرتها.

◆

ظل عادل في قلبها رغم كل ما فعل الغياب. يمكنها أن تعرف أخطاءه كلها، ثم تسمع أنه يحتاج شيئًا فتتحرك نحوه فورًا. ثم اتسعت الحرب، واشتد الخطر.

لم يكن القلق هذه المرة شبيهًا بقلقها القديم حين كانت تسأل العائدين من ليبيريا إن كانوا يعرفون أباها. فقد صار بينهما اتصال، وصارت تستطيع أن تسمع صوته. لكن الهاتف لا يوقف حربًا، ولا يختصر المسافة بين رجل يتقدم به العمر وبلد صار البقاء فيه خطرًا.

لم يعد البقاء في ليبيريا ممكنًا. هرب عادل إلى غينيا. ولم يذهب إليها ليستقر أو يبحث عن منجم جديد. وصل وهو يريد شيئًا واحدًا: المغرب.

◆

حين كلم لبنى، قالت:

— وصلتي بخير؟

— الحمد لله.

— فين نتا دابا؟

— فغينيا.

— وشنو ناوي تدير تما؟

— والو. ما باغيش نبقى هنا.

ثم قال:

— بغيت غير نرجع للمغرب.

سألته:

— نهائي؟

— إييه آ بنتي. صافي. شبعت الغربة.

لم تسأله لماذا تأخر كل هذه السنوات. قالت فقط:

— شنو خاصك دابا؟

◆

كان يحتاج المال وتذكرة. قال:

— إلى قدرتي تعاونيني...

قاطعته:

— ما تكملش. خلّيها عليا.

أنهت ما في يدها في المحل، ثم بدأت تدبر المال والتذكرة. لم تطل المسألة. عادل لم يذهب إلى غينيا ليبدأ حياة أخرى، ولبنى لم تكن ستتركه هناك يومًا أكثر مما يجب. بعد أيام اتصلت به:

— وجد راسك.

— لشنو؟

— للمغرب.

صمت.

— حجزتي؟

— إييه.

جاء صوته أهدأ:

— الله يرضي عليك آ بنتي.

قالت:

— غير توصل بالسلامة.

◆

في يوم السفر اتصلت به مرة أخرى.

— كلشي واجد؟

— واجد.

— التذكرة معاك؟

— معايا.

— والفلوس؟

— معايا.

— ما نسيتي والو؟

سكت ثم ضحك:

— آ بنتي، آش بقى عندي باش ننساه؟

قالت:

— المهم نتا تجي. الباقي ما مهمش.

◆

وصل عادل إلى المطار. اتصل بها:

— أنا دابا فالمطار.

— دخلتي؟

— آه.

— كلشي مزيان؟

— كلشي.

ثم قال:

— نشوفك فالمغرب آ بنتي.

ابتسمت.

— إن شاء الله. وهادي آخر مرة نسولك فين نتا.

ضحك:

— صافي.
أغلقت الهاتف. هذه المرة لم يكن يبتعد. كان يعود.

الفصل 19

وأخيرًا عاد

حين خرج عادل من بوابة الوصول، رأته لبنى قبل أن يراها. حقيبة صغيرة في يده. خطوات أبطأ. وشعر غزاه البياض. رفع عينيه.

— لبنى.

خرجت منها الكلمة كما كانت تخرج وهي طفلة:

— بابا.

وعانقته. لم يكن المطار مكانًا للعتاب. كان يكفي أنه عاد.

◆

في الطريق ظل ينظر من نافذة السيارة. قال:

— تبدلات البلاد.

قالت:

— ونتا حتى نتا تبدلتي.

ابتسم:

— الوقت كيدوز آ بنتي.

◆

لم يعرف عادل كيف يجلس طويلًا بلا عمل. عاد يسأل عن الصالونات. قال للبنى:

— الحرفة ما كتضيعش.

— باقي قادر تخدم؟

رفع أصابعه كأنه يمسك المقص.

— اليدين باقي عارفين خدمتهم.

وعاد فعلًا يعمل في بعض الصالونات.

◆

ثم اختار مراكش ليستقر فيها. لم يعد يريد بلدًا جديدًا ولا فرصة خلف الحدود. وفي مراكش تزوج امرأة مسنّة. كان الزواج هادئًا، أقرب إلى صحبة في مرحلة لم يعد يريد فيها أن يثبت شيئًا لأحد. بيت يعود إليه، ومدينة ثابتة.

صار بوسع لبنى أن تقول: «بابا فمراكش». لم تعد بحاجة إلى أن تسأل العائدين من ليبيريا عن أخباره.

◆

لكنها لم ترد أن يعود إلى المغرب ويعيش بعيدًا عن العائلة التي كبرت في غيابه. أولاد لبنى الثلاثة صاروا بالغين. ابنتها الكبرى تزوجت وصار لها ولد وبنت. ابنها الأوسط يعيش مستقلًا في بيت قريب منها. وابنها الأصغر استقر في كندا.

كانت تجمع عادل بهم في أعياد الميلاد والغداء والاحتفالات. في إحدى المناسبات نادته:

— آ بابا، آجي تصوّر معانا.

أشار بيده:

— خلي الدراري يتصورو.

ضحكت:

— ونتا فين غادي؟ آجي.

وقف بينهم. هذه هي الصورة التي أرادتها لبنى: عادل وسط الأسرة، لا أمام منجم ولا في بلد بعيد.

◆

ولم تتوقف رعاية لبنى لمنير عند رحلته إلى ليبيريا. ففي مرحلة لاحقة رتبت له سفرًا إلى السويد للسياحة. وهناك تعرّف إلى فتاة تزوجها فيما بعد، واستقر معها في السويد، حيث ظل يعيش. لم تكن لبنى تعرف ما ينتظره في ذلك البلد، لكنها كانت قد ساعدته على أن يفتح بابًا جديدًا في حياته.

ومع مرور السنوات، لم تتغير نظرته إليها. كان يقول إنه يعتبر لبنى أمه، رغم وجود أمه أم كلثوم؛ فهي التي كان يلجأ إليها صغيرًا إذا بكى أو جاع، ويقصدها إذا احتاج إلى مال أو ثياب، وهي التي أعانته على لقاء أبيه ثم على السفر الذي غيّر حياته. وبقيت، مهما ابتعد عنها، الأم التي لم تلده.

◆

كانت لبنى تزور أباها في مراكش، ويجلسان أحيانًا طويلًا قبل أن يصل الحديث إلى السنوات التي لم يعيشاها معًا. لم تكن تحتاج إلى مقدمة. يكفي أن تذكر اسم أحد إخوتها، أو يومًا من أيام البيت القديم، حتى يجد الغياب طريقه إلى الكلام.

سألته عن السفر. عن الأطفال الذين تركهم. عن المال الذي انقطع. عن الأخبار التي كان يسمعها ولا يتحقق منها. لم تكن الأسئلة جديدة عليها؛ الجديد أنها تُقال أمامه وهو جالس، لا أمام صورة في الذاكرة.

حاول أن يجيب، ثم انقطع صوته. بكى. لم يكن بكاء رجل يروي حادثة بعيدة، بل بكاء رجل ما زال يجد صعوبة في النظر إليها. انتظرت لبنى، لكنها لم تسحب سؤالها.

قال إن شخصيته كانت ضعيفة. لم يقدم لهذه الكلمة شرحًا يجعلها أقل قسوة. كان يعرف أنه أخطأ في حق ابنته وأسرته، وقال ذلك وهو يبكي.

لم تكن لبنى تبحث عن حكم ينصفها. أرادت أن تفهم كيف استطاع أبوها أن يترك وراءه كل تلك السنوات، ثم يعيش وهو يصدق أن البيت بخير. كانت تتذكر الرجل الذي قال لها وهي في الرابعة عشرة: «انساي باك، راه نساكم». وتتذكر الأظرف التي قيل لها إنها وصلت ولم تُفتح.

قالت له ما بقي من عتابها. بكت هي الأخرى. كان وجهه أمامها وجه أبيها الذي تعرفه، لكنه لم يكن قادرًا على إعادة الرجل الذي انتظرته عند باب المدرسة، ولا الطفل الذي لم يعرفه منير إلا بعد أن كبر.

وحين اشتد بكاؤها، قال لها عادل: «اللي أنا كنت عايز أحققه، إنتِ حققتيه».

كانت تعرف ما يقصده. جاء إلى ليبيريا يطلب الألماس والمال، بينما انتهت هي، بعد سنوات من العمل والتعلم والخسارة والبدايات الجديدة، إلى امتلاك محل للذهب والألماس. لم تقل الجملة إن الطريقين كانا متشابهين. ولم تقل شيئًا عن الثمن الذي دفعته الأسرة.

هل كان يهنئها؟ هل يحاول أن يخفف عنها؟ ربما اجتمع الأمران. لم تسأله عن قصده. بقيت تبكي، وبقي هو أمامها، لا يستطيع أن يعطيها العمر الذي غاب.

بعد تلك المواجهة لم يتحول كل لقاء بينهما إلى استعادة للماضي. كانا يستطيعان أن يتحدثا عن الصحة والأحفاد وأمور اليوم العادية. وفي هذا شيء من المصالحة العملية، إن لم يكن جوابًا عن كل سؤال. كان وجوده قريبًا يسمح لها بأن تراه حين تريد، وأن تغضب منه في داخلها أحيانًا، وأن تحبه في الوقت نفسه. لم تعد مضطرة إلى أن تختار شعورًا واحدًا وتلغي البقية. كانت هذه هي الحقيقة الأكثر إنسانية في علاقتهما: أنها لم تنتهِ بدموع الاعتراف، ولم تبدأ من جديد كأن شيئًا لم يكن.

مع مرور السنوات، ترك عادل العمل في الصالونات. تغيرت علاقته بالمهنة التي لازمته طويلًا، ثم اقترب أكثر من المسجد.

ترك لحيته تنمو، وابيض شعره. لم يعد يتحدث عن المناجم كما كان يفعل في شبابه.

صار مؤذنًا للمسجد في مراكش. وكان يقول إن قربه من الله هو أفضل ما وجده في هذه المرحلة من عمره، وإن الأشياء التي كانت تشغله قد فقدت كثيرًا من قيمتها بعد كل ما مضى.

الفصل 20

أثمن من الألماس

لم تكن كندا غريبة على لبنى. منذ أن استقر ابنها الأصغر هناك، اعتادت أن تزوره كلما استطاعت. أسبوعًا أحيانًا، وأيامًا قليلة أحيانًا أخرى، ثم تعود إلى المغرب. لكن رحلتها في 2026 كانت مختلفة. هذه المرة ذهبت من أجل ولادة ابنه.

◆

بقيت هناك نحو أسبوع إلى عشرة أيام. وحين جاء الطفل إلى الدنيا، كانت إلى جوار ابنها. حملته في أيامه الأولى وتأملت وجهه الصغير. قالت لابنها:

— دابا وليتي با بصح.

ضحك:

— ونتي زاد عندك حفيد.

ابتسمت وهي تهدهد الطفل:

— الله يخليه ليك.

ثم عادت إلى المغرب.

◆

مرت ثلاثة أشهر تقريبًا، وظل في ذهنها أن الطفل لم يُحتفل به في المغرب كما تريد. كان يمكن أن تقول إن الوقت فات.

لكن لبنى قضت جزءًا كبيرًا من عمرها تؤجل الفرح لأن الحياة تفرض دائمًا شيئًا أهم: لقمة، إيجار، طفل يحتاج الحليب، أب غائب، محل يجب إنقاذه، زواج يجب احتماله، وهروب يجب ترتيبه.

أما الآن، فلم تعد تريد أن تؤجل الفرح أيضًا.

كانت تعرف، أكثر من كثيرين، أن الفرح لا يأتي دائمًا في الوقت الذي تختاره العائلة، وأنه إذا تأخر لا يفقد حقه في أن يحدث. لم تكن تريد أن تعوض احتفالًا صغيرًا فحسب؛ كانت تريد أن تقول

لأولادها وأحفادها إن البيت الذي تعلّم الصبر يستحق أن يتعلم الاحتفال أيضًا.

قالت:

— الفرحة ما عندهاش وقت. نفرحو بيه دابا.

◆

لم يكن وصول الحفيد الجديد إلى الأسرة خبرًا عابرًا في حياة لبنى. فقد اعتادت أن تقيس الزمن بأعمار الأطفال الذين ترعاهم: منير الذي حملت له الحليب، ثم أبناؤها الثلاثة، ثم الأحفاد الذين صاروا يملؤون البيت بأصواتهم. ومع كل جيل كانت ترى شيئًا يستمر، حتى حين لا يستطيع الماضي أن يعود. لم تكن الأمومة عندها دورًا واحدًا ينتهي حين يكبر الأبناء؛ كانت علاقة تتغير صورتها وتبقى مسؤوليتها ومودتها.

في كندا، رأت ابنها الأصغر يدخل مرحلة جديدة من حياته. كان هو نفسه الطفل الذي رافقته يوم خرجت من مصر، ثم صار رجلًا يعيش بعيدًا عنها ويؤسس أسرته. لم يكن البعد هذه المرة يشبه غياب عادل؛ كان ابنها يعرف طريق الاتصال والعودة، وكانت تعرف أين تجده. لذلك استطاعت أن تفرح له من غير أن تخشى أن يتحول السفر إلى انقطاع. وحين حملت الطفل الجديد، لم ترَ فيه تعويضًا عن أحد، بل حياة بدأت وتحتاج إلى أن تُستقبل بالمحبة.

بعد عودتها إلى المغرب، لم تفارقها فكرة الاحتفال. لم يكن التأخير ثلاثة أشهر سببًا كافيًا لتترك المناسبة تمر. كانت تعرف أن الأعراف تحدد للناس مواعيد، لكن الفرح لا يفقد معناه لأن موعده تأخر. وما دام الطفل لم يُحتفل به بين أهل المغرب وأصدقائه كما تريد، فبوسعها أن تصنع له مناسبة يلتقون فيها جميعًا.

كانت تتصور الاحتفال بروح مغربية واضحة، لا على هيئة لقاء عائلي سريع. الملابس التقليدية، والأغاني، ووجوه الأقارب، وتفاصيل الضيافة التي تجعل المناسبة ذكرى يتحدث عنها الناس بعد انفضاضها. لم تكن تريد أن تحاكي حفلات الآخرين، بل أن تختار ما يشبه ذوقها وما تحبه من عادات بلدها. وربما كان في هذا الاختيار شيء من استعادة حق قديم في أن تفرح من غير أن تعتذر عن الفرح.

ولم تكن تلك السعادة تلغي ما عاشته. لم تعد بحاجة إلى أن تثبت لأحد أنها تحملت كثيرًا؛ فالذين يعرفونها يعرفون طريقها. كانت تريد أن تقف بينهم هذه المرة لا لتدبر أزمة ولا لتبحث عن مال ينقصها، بل لتستقبل طفلًا جديدًا وتسمع الضحك يملأ المكان. كان ذلك سببًا كافيًا كي تقيم احتفالًا كبيرًا، وتترك للحاضرين أن يروه كما يشاؤون: سبوعًا متأخرًا، أو عرسًا صغيرًا، أو ليلة فرح لا تحتاج إلى اسم أدق.

وحين قررت، جعلت المناسبة أقرب إلى عرس مغربي كامل منها إلى سبوع عادي. احتفال عائلي راقٍ، بروح التقاليد المغربية الأصيلة. قفاطين، تطريز، بخور، شاي وحلويات، وزغاريد. أرادتها لبنى مناسبة واسعة للفرح، تستقبل فيها حفيدها بين الأهل والأصدقاء، على طريقتها.

امتلأ المكان بالأصدقاء والأحباب، وكان بين الحاضرين مطرب شعبي مغربي شهير. حين بدأ الغناء، ارتفعت التصفيقات واندفع الناس إلى الفرح. قال لها أحدهم:

— هادشي ما بقاش سبوع آ لبنى... هادا عرس.

ضحكت:

— إيوا نخليوها فرحة كبيرة.

◆

وقفت لبنى قليلًا على طرف القاعة. سمعت الغناء والضحك، ورأت أهلها يتحركون بين الطاولات. لم يكن في يدها هذه المرة حساب يجب أن تسدده قبل المساء. رفعت طرف قفطانها قليلًا ومشت نحوهم.

لم يكن عادل حاضرًا في الاحتفال. مضت الليلة، مع ذلك، بكل أصواتها.

◆

بعد أيام، رافقت لبنى أحد أحفادها إلى المدرسة. تحدث طوال الطريق عن زملائه، ثم أسرع عند البوابة.

— صافي جدتي، نمشي بوحدي.

— سير آ حبيبي. ورد بالك على قرايتك.

التفت إليها ولوّح، ثم اختفى بين الأطفال.

بقيت واقفة أمام الباب. لم ترَ نفسها في وجهه؛ رأت فقط حقيبة على ظهر صغير، وطريقًا يستطيع أن يكمله. ومن مكان لم تعرف كيف تحفظه الذاكرة كل تلك السنوات، عادت جملة أمها: «حيّدي حوايج المدرسة».

أصلحت طرف وشاحها، ونظرت إلى البوابة مرة أخرى.

كان الأطفال يدخلون تباعًا، ولم يغلق الباب بعد. استدارت لبنى ومشت.

تكتاب عليا

في الدار البيضاء، كانت لبنى طفلة مدللة في عيني أبيها. ثم حمل حلم الألماس عادل إلى ليبيريا، وترك وراءه أسرة تواجه انهيارًا لم تتوقعه.

حين اضطرت لبنى إلى ترك المدرسة، بدأت طريقًا أطول من عمرها، من أعمال صغيرة إلى عالم الذهب والمجوهرات. ومع كل خطوة، بقي سؤال لا يفارقها: لماذا لم يفتح أبوها الرسائل؟

بين المغرب وليبيريا ومصر، تتشابك حكايات الغياب والعمل والحب والخسارة، وتكبر أسئلة لا تكفي الاعتذارات لإسكاتها.

«تكتاب عليا» قصة مستوحاة من أحداث حقيقية؛ عن امرأة تعلمت أن تستمر، وعن أب عاد يحمل ندمه، وعن سنوات لا يعيدها الذهب ولا الألماس.

قصة مستوحاة
من أحداث حقيقية

حسام نجيب 2026 ©
جميع الحقوق محفوظة